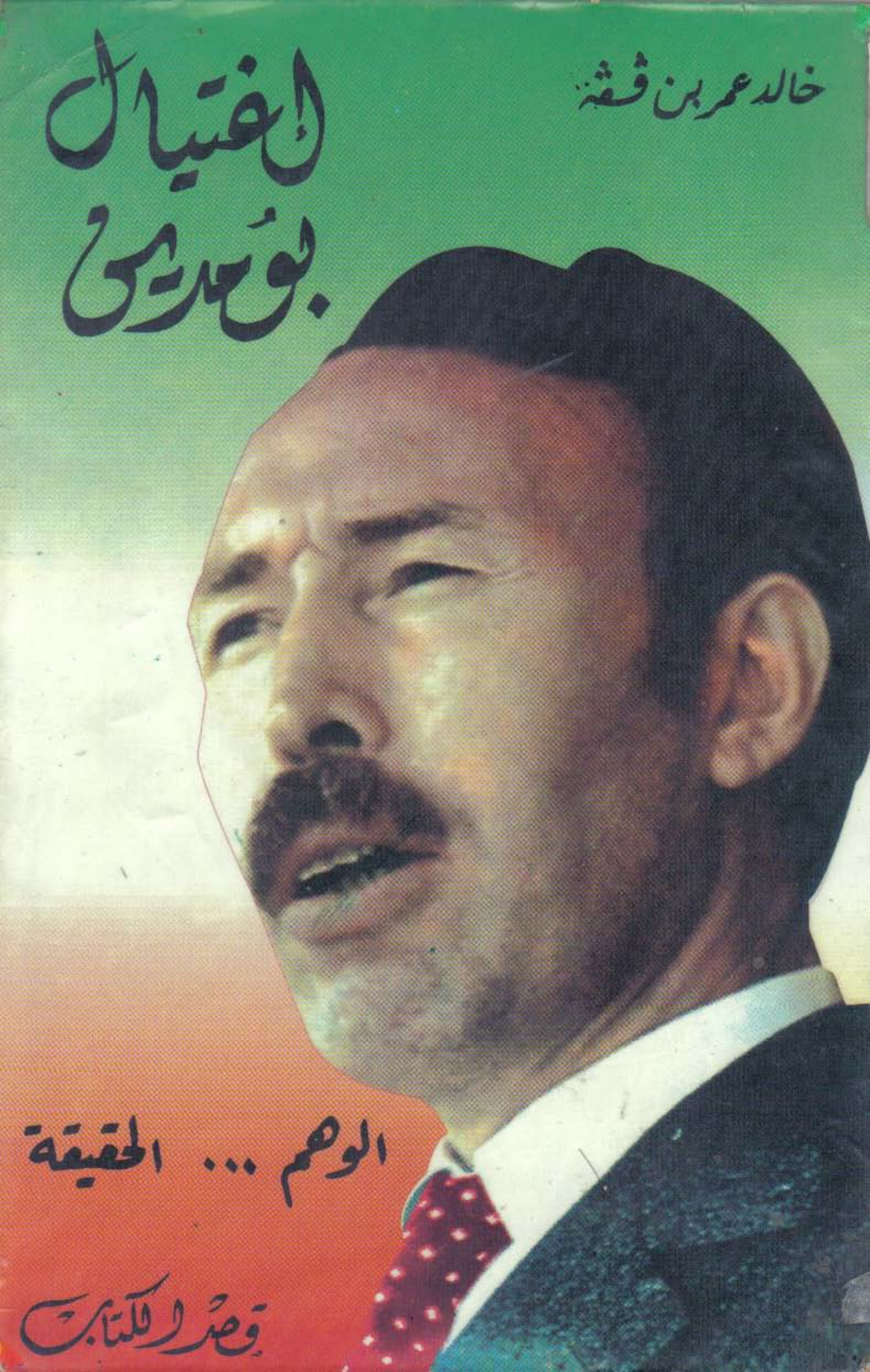

خالد عمر بن ققه
إغتيال بومدين
الوهم ... الحقيقة
قصر الكتاب

خالد عمر بن ققه

اغتيال بومدين

الوهم.. والحقيقة

1997

قصر الكتاب البليدة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ﴾



المقدمة

منذ ثمانية عشرة سنة توفى الرئيس الجزائري "هواري بومدين" بعد مرض عضال دام أكثر من شهرين، وقد بذلت الحكومة الجزائرية الكثير من أجل إنقاذ حياته، لكن لكل أجل كتاب.

ورغم أن وفاته قد عرفت لحظتها أنها بسبب المرض، إلا أن الشارع الجزائري، لم يصدق ذلك، خصوصاً بعد بذل جهود مضنية من طرف المسئولين الجزائريين لإخفاء مرضه في بداية مراحله.

لقد ترتب عن ذلك الشك وعدم الثقة في كل

أفعال السلطة، وبعد 14 سنة تقريباً من وفاة بومدين، غابت الثقة نهائياً في السلطة. وما يحدث الآن خير دليل على ما نقول.

وعندما توفي بومدين كان أبناء جيلي في الثانويات، ولهذا لم يستطيعوا الحكم عن الأحداث آنذاك، رغم حبهم الكبير لبومدين، وربما يعود ذلك الحب إلى الهالة التي كانت حوله بصفته قائدا وزعيما، فرض وجوده على الساحة الوطنية والدولية، وربما للإعلام الموجّه.. المهم أننا كنا نحب الرجل، وبعد 18 سنة زاد حبنا له وأصبح هو - الترمومتر لقياس حركية الأفعال السياسية.

وفي الحب السابق تكمن الخطورة، لأن هذا الحب لم يعد إعترافاً بأفعال بومدين وإنما قياس لكل الأفعال والقرارات السياسية بمدى قربها أو بعدها من أفعاله وقراراته.

وفي هذا الحب أيضاً تكمن الحالة الميكانيكية «الثابتة» كأن الزمن الجزائري بعد الإستقلال توقف عند مرحلة بومدين.

وأخيراً في هذا الحب غاب الحاضر والمستقبل ليحل

الماضي ويصبح هو الحاضر وحين نتكلم عن حلول الماضي في الحاضر، فإنما نقصد - تحديداً - حبنا لتلك المرحلة بكل ما تضمنته من إيجابيات وسلبيات.

ولكي نخرج من الماضي - دون نسيانه - علينا أن نعي جيداً، وعلى مستوى الأمة العربية والإسلامية أن التاريخ لا يتوقف عند رجل واحد، فالأمة لا تختصر في شخص، ولن يكون الوعي إلاَّ إذا بدأنا البحث في سبل تدارك الحاضر قبل ذهابه وعدم عودته أبداً.

غير أننا ونحن نعيش الحاضر ونعد للمستقبل عدته على قاعدة سلبة، نجد أنفسنا مجبرين على معرفة خلفية كثيرٍ من الأمور، من ذلك بداية الاغتيالات في الجزائر، والتي قد تبدأ مع اغتيال بومدين، الرجل، والمشروع، والجيش والدولة، وفي النهاية محاولة اغتيال العقيدة «الدين».

إن محاولة البحث في اغتيال بومدين، هي لُبّ موضوعنا، دون أن نهدف من وراء هذا البحث إلى إبقاء حياتنا على جماجم الأموات، أو عبادة القبور، أو حتى

الهروب من الواقع.

وللعلم فقد كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن مرض بومدين، وتم التلميح إلى اغتياله إلى أن قاربت سنة 1995 إلى الإنتهاء فأعلنت جهات مسؤولة في الوطن العربي عن اغتياله من طرف الرئيس صدام حسين، في وقت كان العراق - وما يزال - في أمس الحاجة إلى حب الشعب العربي له، لا كراهيته.

غير أننا بالبحث والتقصي وصلنا إلى أن هناك أطرافاً عدة متهمة باغتياله أكثرها بروزاً الموساد (إسرائيل). والغرب (فرنسا وأمريكا)، ذلك لأن الرجل - بومدين - وقف ضد مشاريع الغرب، وهناك من يعتبر اغتياله قضاء على قوة العرب من جهة، وعلى قوة المسلمين من جهة ثانية، خصوصاً بعد أن دار الكلام على صناعة قنبلة نووية إسلامية.

من ناحية أخرى فقد تكلم بعض المسئولين الجزائريين، والأطباء الخاصين عن مرض بومدين، ومازلنا في إنتظار وتصريحات المسئولين الآخرين، إلا أن تلك التصريحات

تختلف إلى حد بعيد عما ذكره الأطباء الروس، خصوصاً كبير أطباء الكرملين الذي أشار إلى أنه مصاب بفيروس من مواد سامة، مما يعني اغتياله.

وإذا كنا في هذا الكتاب لم نستطع إثبات التهمة عن أخطبوط الجريمة، إلا أننا توصلنا إلى معرفة عصابة هذا الأخطبوط الذي امتدت أذرعه في عدة أماكن، لذلك فالكتاب لا يقدم إجابة محددة عن تأكيد هؤلاء لجريمتهم، لكنه ينقل اغتيال بومدين من مجرد وهم إلى حقيقة ثابتة، وهذا عبر ثلاثة فصول.

تناول الأول منها : تأويلات مرض بومدين في الصحافة الغربية ووكالات الأنباء، وقد أثبتت فشلها الذريع - في البداية - في معرفة خلفيات غياب بومدين، وطعنت الجزائر بأكثر من خنجر، وصار غياب بومدين حديث كل الصحف من اسبانيا إلى لبنان وينتهي الفصل بالرسالة المزعومة والمشبوهة التي قيل أن بومدين أرسلها إلى الرئيس الفرنسي "فاليري جيسكار ديستان".

ويركز الفصل الثاني عن : أسرار مرض بومدين، والصراع بين المدرسة السوفياتية والمدرس الغربية في سبل علاج بومدين، ووقوع السوفيات في مأزق بإكتشافهم لخطورة مرضه وتأكدهم من عدم شفائه، وإعلانهم تعرضه لمواد سامة.

وفي الفصل الثالث نتكلم عن الأطراف المتهمة بالاغتيال، ونعرض لمواقفها، وخلفيات عدائها للجزائر ولبومدين خاصة، ونوضح الإختلاف بين ملك المغرب وبومدين، وبينه وبين صدام وننتهي إلى صمت المقربين من بومدين، خلال فترة حكمه.

وبإختصار فهذا الكتاب يعرض الحالة الصحية لبومدين، من خلال اغتياله بالسم، وذلك لعرقلة الجزائر عن تنميتها، وتصفية أحد القادة الفاعلين للأمة العربية والإسلامية.

وبغض النظر عن خلفية الاغتيال - أو المرض كما يحلو للبعض أن يراه - فإن الحقيقة الوحيدة أن بومدين قد مات، بعد أن أدى الذي عليه، ولم يبق إلا ما قدمه لبلاده، وحين نعيد إحياءه في الذاكرة، فذاك من أجل أن نطيل في عمر الجزائر

والأمة العربية... إنها سلسلة متصلة تضعف بعض حلقاتها لكنها لا تنفصم. وحالة الضعف التي تمر بها الأمة العربية - ومن ضمنها الجزائر - لا يعني غياب القادة الفاعلين، ولكن يعني - في نظري - أن الفرص لم تتح للأبطال والقادة، وبما أن الخير في رسول الله، وفي أمته فهذه الأمة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فيها الخير، الفعال، المغير، ولم يكن بومدين آخر أبناء الأمة، لكنه بالتأكيد أحد رجالاتها الذين يجب أن لا ننساهم، وذلك بالتذكير بأفعالهم، وحين يختطفوا منا إختطافاً علينا أن نوضح لماذا اختطفوا؟ وممن؟ حتى لا يختطف منا آخرين.. وهو ما حاولت الوصول إليه في هذا الكتاب..

والله من وراء القصد..

خالد عمر بن ققه

القاهرة في 24/10/1996

الفصل الأول

« مرض بومدين .. وتأويلات الصحافة »

- أولاً : خناجر الصحافة الغربية.
- ثانياً : من إسبانيا .. إلى لبنان : بومدين هو الحدث.
- ثالثاً : قصة مرض بومدين : البداية والنهاية.
- رابعاً : بومدين .. ديستان . والرسالة اللغز.

لأن بومدين - رحمه الله - لم يكن رئيساً عادياً، فقد كان غيابه ولو لأيام يتطلب البحث عنه والسؤال.

ولأنه كان - وخلال سنوات حكمه - قد ملأ الدنيا بمواقفه الثابتة التى تعبّر عن الجزائر الثائرة والمستقلة، فقد كان ضرورياً الإحساس بغيابه.

ولأنه كان زعيماً، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. فلابد أن يشعر القادة وغير القادة بأن غيابه ليس عادياً.

وبما أن بومدين كان له أصدقاء كثيرون وله أعداء أيضاً كثيرون، فقد إلتزم الأصدقاء الصمت بحثاً عنه، حتى يعرفوا أسباب الغياب، ولكن الأعداء - خصوصاً - دول الغرب، فقد سارعت إلى إعطاء تأويلات وتفسيرات، معظمها يتعلق بالدولة الجزائرية، وليس ببومدين، وقد عانت الجزائر - وماتزال - من هذا التعامل أثناء الإحتلال، ومن بعده.

لقد كانت وكالات الأنباء الغربية، وماتزال جزءاً من منظومة الاستخبارات، وكثير من المراسلين جواسيس، لذلك كيَّفَت الأخبار حسب مصلحة هذه الدولة أو تلك، بل

وساهمت فيها بعض السفارات المعتمدة في الجزائر، بما أعطته من معلومات متناقضة، ولا صحة لها، وكانت مجرد تأويلات تعبّر عن رغبة تلك الدول في إهتزاز صورة الجزائر، وقد تمكنت من ذلك إلى حد بعيد في السنوات الأخيرة.

وحين نعود الآن لقراءة بعضاً مما ورد في مختلف برقيات وكالات الأنباء الغربية والتي نقلت عنها الصحف العربية نجد أن الأمر لا يتعلق بغياب رئيس لفترة عن الحكم، ولكن ما يحمل هذا الرئيس من مبادئ... فالأمر بإختصار يتعلق بالجزائر.

ولهذا حين قررت الإهتمام بموضوع اغتيال بومدين، أو مرضه كما يحلو للبعض أن يسميه، فإنني في واقع الأمر أضع يدي على جانب من معاناة الجزائر، وبما أن بومدين قد مات، والجزائر لم تمت، فإن إهتمامي هو كيفية ربط المراحل الجميلة في التاريخ الجزائري ببعضها، متجاوزاً في ذلك الأشخاص، وإن كان من الصعوبة تجاوز رجل مثل «هواري بومدين».

لقد كان الظاهر أن الذين حوله، فريق واحد معه،

يناصره ويقف إلى جانبه، ولكن بعد ذهابه لم يبق إلا القليل، وهنا علينا أن نتساءل :

- لماذا الصمت عن حقيقة موته أو اغتياله ؟

- ومن الذي يملك الحقيقة ؟

- ولماذا يترك موضوعه ليستغل من طرف أوطان أخرى وشخصيات أخرى ؟

- ثم لماذا أقرب الناس منه، وأحبهم إليه إلتزم الصمت ؟

- ولماذا يغتال عدة مرات بعد موته آخرها تدمير منجزاته؟

هذه الأسئلة وغيرها تقض مضجعي، وبالتأكيد يطرحها كل يوم غيري ويقلق ذكرها الذين يَرُون في كرسي السلطة عجل السَّامِري الذى صنعه لليهود لكي يتخذوه رباً.

والحقيقة أن البحث عن الحقائق لا يتوقف مهما حاول البعض إخفاءها، وحياة القادة ملك شعوبهم، وحين يحاول بعض من أشباه القادة أن يكون بديلاً عن بومدين فإنه لا

يستطيع، لأن الناس تتعلق بالعظماء حتى لو كانوا أمواتا، وتكره - علانية أحياناً وخفية من البطش أحياناً أخرى - أشباه الرجال وعقول ربَات الحجال، حتى لو حكم الزمان بأن يكونوا في سدة الحكم.

ولأن حياة القادة ملك شعوبهم - كما ذكرت - فإن الأيام الأخيرة من تلك الحياة هي موضوعنا، لأنها مثار الرأي العام،

وللرأي العام أحكامه، وأهم ما يطرحه الآن في الجزائر هي علاقة الحكام بالمحكومين تلك العلاقة التي اهتزت.

وعلاقة الشعب ببومدين، تداخل فيها الحب بالكراهية، والخوف بالأمان، والعزة بالذل، والمصالح الفردية بالمصالح العامة.

فهناك قائد - حاكم - من عينيه يتطاير الشرر، يخيف عتاة الرجال، وتدمع عيناه أمام طفل أو حين يتذكر موقف من مواقف الثورة.

رجل نظيف ونزيه، ويعرف أن الذين حوله كثير منهم لا يحملون أفكاره، وضد مشاريع التنمية، وكان يتغاضى عن هذا لأن قد لا يجد منهم أحسن منهم في نظره، ولم يكن أمامه الوقت كافياً ليبحث عن آخرين.

لذلك فكثير من الجزائريين عرفوا «بومدين» بعد موته بسنوات حين غاب الأمان وحل الخوف، واستبدلت كراهية السلطة بكراهية الشعب، ورحلت العزة، لأن الذل الجماعي والاجتماعي هو الذي سيطر على مكان العزة، وطغت المصالح الفردية وصار تحقيقها بالدماء أمراً غير مكره أو منكر.

وتلك المعرفة تتطلب منّا الوقوف ملياً أمام أيام مرضه، لأنها تبرز جوانب مما يريد الشعب الجزائري معرفته، وهو يرى بالبصيرة كيف يموت الأبطال.

وإذا صدقت التحاليل الطبية وصدق الساسة فيما يقولون «عن مرض بومدين الذي كان نتيجة للسم الذي وضع له، فإن المقصود بالطبع هي الجزائر»، عبر شخص بومدين.

ونحن هنا لا نريد أن نختصر الجزائر في شخص بومدين

- رحمه الله - وإنما فقط التأكيد على الأيام الجميلة في تاريخها التي صنعها الرجال، ومنهم بالطبع بومدين.

فكيف تعاملت الصحافة مع مرض بومدين؟ وما هي مصادر تلك الأخبار؟، ولماذا شكل غياب بومدين الحدث؟ وما هي قصة الرسالة التي بعث بها بومدين إلى الرئيس الفرنسي فاليري جسكارديستان آخر أيامه؟... كل هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عليها في هذا الفصل.

• أولاً: خناجر الصحافة الغربية

القول بأن الصحافة الغربية تصل إلى أسباب الفضائح في مجتمعاتها أمراً مقبولاً، ومتابعة الأحداث في كل مكان أيضاً يعد ممكناً، ولكن معرفة ما يدور في كل دولة أو حتى التنبؤ في اللحظة نفسها يعد من باب المبالغة، خصوصاً إذا تعلق الأمر بدولة مثل الجزائر كانت تتخذ جميع قراراتها في السر.

ولأن الأمر كذلك، فقد تأخرت في معرفة مرض بومدين، إلى غاية نوفمبر علماً بأنه واجه المرض منذ نهاية شهر سبتمبر 1978.

ومشكلة الصحافة دائماً، وليس الغربية، هي البحث عن الأخبار، وأحياناً لا تتأكد من المصادر، ولو انتظرت حتى نتأكد لما استطاعت أن تنشر أي خبر.. وكان عليها، في غياب بومدين أن تعلن أية أخبار حتي لو «فبركتها» ومهما كلفها ذلك.. وهو ما فعلته بالضبط.

لقد قالت : أن بومدين أصيب بالرصاص نتيجة لإنقلاب فاشل.

وقالت أيضاً بعدها بيوم واحد : قد سقط بالفعل عن الحكم.

وعادت بعدها بيوم لتؤكد أن مصادر دبلوماسية أبلغتها بإنقلاب قد وقع بالفعل ونجا منه بومدين، وألقي القبض على العناصر التي قامت به.

وبعدها بيومين أعلنت أنه في الاتحاد السوفياتي للتفاوض من أجل السلاح لصالح دول الصمود والتحدي التي رفضت كامب دفيد.

وأثناء وجوده في موسكو، عادت للبحث في الداخل، وهذه المرة كشفت عن أن الرائد علي ملاّح الذي هرب من السجن قد ألقي القبض عليه في إيحاء إلى أن ما ذكرته سابقاً مؤكداً.

وبعدها بأيام قالت : أن السبب وراء عدم ظهور بومدين هو إصابته بمرض خطير لم تحدده، وإن كانت قد وضعت جملة من الإفتراضات، جميعها لم تثبت.

وبعد ثلاثة أسابيع من إختفاء بومدين، جاءت الأخبار من باريس تناقض ما قيل سابقاً، وهي أن حالة بومدين ليست مثيرة للقلق، ولكنها تحتاج إلى الراحة والعلاج الطويل على أيدي الأطباء السوفيات.

وبعد هذا بيومين جاء خبر من واشنطن ليؤكد أن الأطباء السوفيات لم يحددوا نوع مرض بومدين.

غير أن هذا الخبر نفسه كذب بطريقة غير مباشرة من مصادر أفريقية - لم تحدد - ليقول أنه -بومدين- ليس مريضاً، وإنما يزور موسكو لطلب المساعدة العسكرية... وفي نفس اليوم نشر خبر آخر من باريس يدعي أن بومدين فقد صوته. وأنه يعاني من آلام في الحلق.

خمسة أيام بعد ذلك أعلن خبراً في الصحافة المغربية بالرباط عن مرض بومدين بدرجة خطيرة.

وبعدها بيومين أوردت الوكالات أول خبر يصدر عن جهة جزائرية مسؤولة وكان ذلك في الثاني من نوفمبر، حيث أعلن أن الحالة الصحية للرئيس بومدين، أحسن مما كانت عليه.

وعادت التأويلات من جديد وهذه المرة من مدريد، حيث أعلن هناك أن الرئيس الجزائري هواري بومدين مصاب بالسرطان.

وبعد ذلك بأسبوع قالت الصحف المصرية في القاهرة : أن بومدين يعاني من مرض شديد داخل البلعوم.

لكن الأخبار السابقة، نفاها هذه المرة خبر من مدريد فحواه "أن بومدين يعد لحملة واسعة للتخلص من معارضيه، وأنه يعاني من مرض في المسالك البولية".

وعاد الحديث عن المرض بالسرطان مرة أخرى بعد يومين من نشر خبر في إسبانيا، وأتبع بالأسماء المقترحة خلفاً للرئيس بومدين.

وفي الجزائر أعلنت وكالة الأنباء الجزائرية عن طرد مراسل صحيفة «لورور» الفرنسية بسبب ما نشر عن مرض بومدين.

وفي الاسبوع الأخير من نوفمبر نشرت جريدة «الأنباء الكويتية خبراً مفاده أن الأطباء لم يتمكنوا من تحديد مرض بومدين.

وفي نفس اليوم نشرت جريدة النهار اللبنانية خبراً يعتبر أن فرنسا منعت وقوع إنقلاب ضد بومدين في بداية الشهر» -(أي نوفمبر 1978).

وأخيراً - وبالضبط في 25 نوفمبر - نشرت مختلف وكالات الأنباء العالمية نوع المرض الذي أصيب به بومدين وهو «والدنستروم»، وبعد إعلان هذا الخبر، لم تضف الوكالات أى أنباء أخري، وإنما صارت تتابع فقط الحالة الصحية لبومدين.

وقبل ذكر ما جاء في مختلف البرقيات بالتفصيل، نبرز مجموعة ملاحظات على مختلف الأخبار السابقة التي تناولت غياب بومدين على النحو التالى :

١ - هناك سرعة واضحة في التأويلات، ومن كثرة العداء الغربي للجزائر ربط غياب بومدين بالإنقلاب.

٢ - لأهمية بومدين والجزائر، تناولت معظم الوكالات غياب بومدين.

٣ - في إطار الصراع بين الشرق والغرب، إعتقدت معظم الوكالات أن بومدين يزور الإتحاد السوفياتي من أجل الحصول على السلاح إما لتدعيم جبهة الصمود والتصدي، أو لتقوية الجزائر في نزاعها مع المغرب.

٤ - حين لم تستطع كشف خلفيات الغياب الذي طال في الإتحاد السوفياتي رجحت أنه مريض.

٥ - وعند معرفتها بالمرض، وبالرغم من عجز الأطباء حاولت الوكالات أن تقوم هي بتحديد المرض.

٦ - خضع غياب بومدين عن الأنظار إلى مختلف التأويلات - كما هي عادة الصحافة - وذلك حين تعذر معرفة الأسباب من الداخل، ولم تستطع الوكالات التأكد من خبر المرض إلا حين أعلنت الجزائر ذلك.

٧ - وقعت الوكالات في تضارب، وكشفت عن ضعف بل وعجز المصادر الدبلوماسية الغربية في الجزائر، التي كانت تزودها بالأخبار.

هذه هي مجمل الملاحظات عن أخبار الوكالات، التي نتناولها الآن بالتفصيل وحسب الأخبار المنشورة التي نقلت عنها الصحف والوكالات العربية.

في 13 أكتوبر 1978 نشرت صحيفة «لورور» الفرنسية خبراً، بدا في تلك اللحظة أنه غريب إلى حد بعيد،

فقد قالت : «إن الرئيس الجزائري هواري بومدين لم يظهر منذ عودته من مؤتمر الرفض يوم 24 سبتمبر الماضي...»[1] وذهبت الصحيفة إلى أبعد من هذا حيث أكدت على «أن سكرتير رئاسة الجمهورية يجري بحثاً موسعاً للعثور عليه... وأن الإجتماع الاسبوعي لمجلس الوزراء لم ينعقد منذ ثلاثة أسابيع...».

وحاولت أن تعطي تفسيراً لغياب بومدين المفاجيء بقولها : «إن إختفاء بومدين يرجع للإضطرابات المتزايدة بين الشعب الجزائري بسبب قرارات تأميم المشروعات الصغيرة..».

ولهذا الخبر ثلاثة أهداف في نظري - أولها : أن الإشارة إلى غياب بومدين، يوحي بمتابعة الوضع في الجزائر، وثانيها : إعطاء تفسير للغياب وهو التأميم، وثالثها : أنه - بومدين - لم يعد في إمكانه المواجهة.

وبغض النظر عن تلك الأهداف، فإن داخل الخبر إشارة واضحة للطعن في النهج الاشتراكي، ذلك لأن بومدين لم

يؤمم المشروعات الصغيرة كما زعمت الصحيفة.

وفي 15 أكتوبر (أي بعد يومين) صاغت صحيفة «لورور» الخبر بطريقة أخرى وعنها نقلت جريدة الأهرام المصرية، وجاء في الخبر «.. إن بومدين أصيب بجراح خطيرة في وجهه نتيجة لإطلاق الرصاص عليه في محاولة إنقلاب فاشلة وقعت في الجزائر، وأن جراحة عاجلة أجريت له لإنقاذ حياته...» وأضافت «أن هذه المحاولة كان المفروض أن تقوم بها العناصر العسكرية أثناء وجود بومدين في دمشق..».

وفي نفس اليوم (أي 15 أكتوبر) علقت الصانداي اكسبريس بقولها : «إنه من المحتمل أن يكون الرئيس الجزائري بومدين قد سقط بالفعل عن الحكم نتيجة للإنقلاب العسكري، قامت بتدبيره مجموعة الضباط الشباب بمساعدة أعداد من قوات الأمن...».

وأضافت الصحيفة نقلاً عن مصادر موثوق بها - كما تدعي - « أن بومدين قد جرح.. وأنه أُخِذَ أسيراً، ووضع في قصره الصيفي المقام وسط الصحراء خارج العاصمة

الجزائرية».

ولنا أن نتساءل عن أي قصر تتحدث الصحيفة؟ وأين يوجد هذا القصر الصيفي الذي يقيم فيه بومدين وفي الصحراء؟، فعلاً فالمصدر موثوق فيه.

ولتؤكد الصحيفة صدق خبرها، ذهبت إلى القول: «أن عدة مدن جزائرية تسودها الإضطرابات والمظاهرات وتوزع فيها الأسلحة في الطرقات، كما وقع هجوم على إحدى الحاميات العسكرية..».

ويبدو أن تأويلات وإشاعات الصانداي إكسبريس تلاقت مع رغبة المعارضة الجزائرية في الخارج، من ذلك ما أوردته جريدة الأهرام في خبر نقلته من باريس جاء فيه ما يلي:

«أصدرت سكرتارية حزب القوى الإشتراكية - وهو حزب جزائري في المنفى - بياناً يدعو فيه إلى إيجاد حل ديموقراطي للأزمة الجزائرية، وإعادة الحريات بعد إسقاط النظام القائم في الجزائر، كما طالب بإنتخاب جمعية تأسيسية خلال

ستة شهور[2]، وإنشاء لجنة للدفاع عن الحريات، وتطبيق الميثاق الوطني[3] الذي يرمي إلى وضع حد لتدهور الإقتصاد والبطالة، ولنقص الطعام... وأكد واضعو هذا المخطط على أنه يجب ضمان الحريات الشخصية وحرية التعبير والنشر، والرأي، والإجتماع، وإنشاء الجمعيات، وكذلك الحرية النقابية.

ونددوا في مقدمة البيان بنظام الرئيس هواري بومدين الذي قاد إقتصاد البلاد إلى الإفلاس، وإلى الديون الفادحة وألحق الضرر وفرض على الجماهير تقشفاً لا يحتمل...»[4].

من ناحية أخرى فإن صحيفة صانداي اكسبريس عادت لتؤكد ما ذهبت إليه جريدة لورور الفرنسية، إذ ذكرت يوم 16 أكتوبر 1978 نقلاً عن مصادر السفارة البريطانية في الجزائر «إن إنقلاباً عسكرياً وقع في الجزائر، وأطاح ببومدين الذي أصيب برصاصة، وتم إعتقاله، وأن الضبّاط الشبان وراء الإنقلاب..».

ويختلف هذا الخبر تماماً مع ما أوردته بعض الصحف

العربية في نفس اليوم، فقد ذكرت صحيفة القبس الكويتية «أن بومدين يقوم بجولة في موسكو والدول الشيوعية لتفسير قرارات مؤتمر الصمود الذي عقد أخيراً في دمشق.

وبعدها بيوم نشرت صحيفة السياسة الكويتية تحت عنوان -- مانشيت «أسباب إحتجاب بومدين والتشكيلات العسكرية للجبهة الشرقية» كتبت تقول : أكدت "للسياسة" مصادر دبلوماسية ذات صلة أن الخلوة التي أمضاها الرئيس الجزائري هواري بومدين، في الاسبوع الماضي، والتي أثارت التكهنات قد تكرست لموضعين أساسيين :

الأول : وقف خطة التنمية الخمسية الثانية التي يفترض أنها تبدأ العام القادم، وإعادة توزيع الإقتصاد الجزائري على أسس جديدة تستند إلى الإلتزام بالمواجهة وفقاً لما تقرر في مؤتمر الصمود والتصدي الذي عقد مؤخراً في دمشق.

الثاني : دراسة موضوع حل مشكلة الصحراء الغربية وفق مشروع قابل للتنفيذ، أوكلت فيه للرئيس الليبي معمر

القذافي مهمة الوساطة بين الأطراف العربية والأفريقية المعنية، وفي ضوء ما أسفرت عنه هذه الخلوة جاءت رحلة الرئيس بومدين إلى موسكو، ليطرح على السوفييت رسالة متممة للرسالة التي كان قد طرحها الرئيس السوري حافظ الأسد، وتقوم هذه الرسالة على سؤال مركزي إلى أي حَدّ أنتم السوفييت جادون في معارضة إتفاقية كامب دفيد؟!

وتُضيف هذه المصادر ذات الصلة نقطتين، الأولى : أن أسلحة ليبية متقدمة جداً بصناعة سوفياتية قد جرى نقلها لسوريا في الأسبوعين الماضيين، وذلك في إطار تنفيذ ما تم الإتفاق عليه سراً في مؤتمر الصمود، والنقطة الثانية هي : أن أسلحة سوفياتية متقدمة جداً قد بدأت تصل سوريا بعد عودة الرئيس الأسد، ومن هذه الأسلحة طائرات ميغ 25 وصواريخ متطورة جداً[5].

وإذا كانت صحيفة «السياسة» قد أشارت إلى الإتفاق بين القادة العرب الرافضين لإتفاقية كامب دفيد، فإن

«الأسوشيند برس قد أكدت قبل ذلك بيوم عكس ذلك تماماً، فقد قالت: «إن الرحلة المفاجئة التى قام بها بومدين إلى موسكو تعكس وجود إنشقاق بينه وبين الأسد، الذي أنهى قبل أيام قليلة زيارة لموسكو..».

وأشارت أيضاً إلى «أن قمة دول الرفض كانت قد فوضت الأسد بمفرده عرض موقفها من إتفاقات كامب دفيد خلال مباحثاته مع القادة السوفيات».

وهكذا نلاحظ أن وسائل الإعلام الغربية تستعمل الخنجر تلو الآخر ضد بومدين، وبالتالي ضد الجزائر، فمن القول بالإنقلاب، إلى الإدعاء بفشله في قيادة دول الصمود والتصدي، وحين لم تفلح في ذلك، أشارت بصيغ مختلفة إلى «أن هناك شائعات عن مرض بومدين بمرض خطير ووضعت له عدة إفتراضات منها : مرض في الأسنان، شلل في الجانب الأيسر من الوجه والذراع الأيسر، آلام في الكلى».

والملاحظ أن غياب بومدين مدة طويلة وعدم ممارسته لأي نشاط سياسي، وبقاءه مدة طويلة في الإتحاد السوفياتي

فتح البـاب أمام التكهنات وما كـاد يحل يوم 19 أكتوبر حتى جـاءت الأخبـار مـعلنـة مرض بـومديـن مع عـدم تحديـد نوع المرض، وكـان ذلك بسـبب تمديد بـومدين لـزيارته في الاتحـاد السوفياتي.

فقد نـقلت يوم 21 أكتـوبر جريدة الأهرام عن مـصادر صحـفيـة في الكـويت قولـها: «أن الرئـيس الجزائـري هواري بومدين يعـاني من إضطرابات في الكلية والكـبد، وإنسداد في القناة المرارية، وأنه توجّه إلى الإتحاد السوفياتي منذ إختفائه عن المسرح السياسي منذ ثلاثة أسابيع».

وقالت أيضاً هـذه المصادر نقلاً عن دوائر دبلومـاسية في باريس «أن حالة بومدين قد لا تكون مثيرة للقلق، ولكنها تحتاج إلى الراحة والعلاج الطويل على أيدي الأطباء السوفييت»[6].

وعلى نـفس السـياق جاء خـبر فـي صحيـفة «واشـنطن بوست» التي قالـت «أن سفر بومدين إلى موسكـو كان للعلاج من مرض لم يحدد الأطباء طبيعته وطرق علاجه حتى الآن»[7].

لكن خبر المرض عاد للإختفاء ثانية يوم 25 أكتوبر 1978 حين وصل وزير الخارجية الجزائري أنذاك «عبد العزيز بوتفليقة» إلى موسكو قادماً من واشنطن، إذ أشارت تقارير صحفية أفريقية - لم تحدد - إلى أن بومدين ذهب إلى موسكو لطلب المساعد الدبلوماسية والعسكرية في حالة نشوب حرب مع المغرب.

وفي نفس اليوم - وكأن المقصود القضاء على الخبر السابق، ذهبت مصادر فرنسية إلى التأكيد على أن بومدين فَقَدَ صوته، حيث صرحت تلك المصادر المطلعة - على حد قولها - في باريس «أن الرئيس الجزائري هواري بومدين الذي انقطع عن الإشتراك في الحياة العامة منذ سبتمبر الماضي قد فَقَدَ صوته»، وقالت نفس المصادر نقلاً عن بعض الأطباء أنه يخشى من خطر حدوث تلف دائم لصوت الرئيس بومدين، وذكرت أن هذا المرض يرجع إلى ما بعد حضور الرئيس بومدين مؤتمر دول الرفض الذي عقد في نهاية سبتمبر 1978، وأنه ظل يعاني من آلام حادة في حلقه، وقد كان يعالج في

مستشفى «مايو» بالجزائر قبل توجهه إلى موسكو.

واعتبر الخبر الثاني هو الأقرب إلى الصدق بالنسبة للمغرب، فمختلف أجهزتها الإعلامية لم تشر من قريب أو بعيد إلى محاولة إستعانة بومدين بالسوفييت تحضيراً لحرب بين المغرب والجزائر، وذلك حسب تكهنات وتحليلات الصحافة الغربية.

غير أنه ما كان في قدرة المغرب أن تلتزم الصمت إزاء غياب بومدين، لذلك كتبت صحيفة «المغرب» نقلاً عن مصادر دبلوماسية وسوفياتية وأمريكية في الرباط «... إن الرئيس بومدين مريض في موسكو بدرجة خطيرة لم يسمح معها لوزير الخارجية الجزائري الذي يقوم بزيارة رسمية للإتحاد السوفياتي برؤيته..»، وأضافت الصحيفة نقلاً عن نفس المصادر «.. إن الفيلم الذي ظهر مؤخراً على شاشة التليفزيون السوفياتي لبومدين، وهو يصافح الرئيس السوفياتي «برجنيف» كان فيلماً قديماً صوّره أثناء زيارة بومدين لموسكو في يناير الماضي...».

والواضح أن الوكالات العالمية والصحف كانت تبذل عدة محاولات لمعرفة غياب بومدين على السّاحة، وكان عليها أن تنتظر أكثر من شهر، - كما سنرى في نهاية الفصل - لتعرف أن بومدين مريض، وأنه يعالج في الإتحاد السوفياتي، ويبدو أن السلطات الجزائرية قد ساهمت في عملية تمويه واسعة، وبطريقة مقصودة، وإلا بماذا نفسر تصريحات عبد العزيز بو تفليقة لصحيفة الرأي العام الكويتية يوم الأول من نوفمبر 1978، التى أكد فيها أنه تم إلقاء القبض على الرائد «عمّار ملاح» الذي دبر محاولة اغتيال هواري بومدين..»[8].

وإن كانت الوكالات حين نقلت عن صحيفة «الرأي العام» لم تحدد مُحَاولة الاغتيال، هل هي التي سببت المرض أم أن مرضه لا علاقة له بالمحاولة؟

وبغض النظر عن الاجابة فإن مرض بومدين لم يتوقف عند الصحافة المغربية، إنها تناولته الصحافة الإسبانية، ووصل بعد ذلك إلى غاية لبنان، فكيف كان ذلك؟!.

• ثانياً : من إسبانيا إلى لبنان.. بومدين هو الحدث :

إذا كانت الأيام الأولى لمرض بومدين، قد جعلت مختلف الوكالات الغربية عموماً، والفرنسية بوجه خاص، تضع عدة إحتمالات، بدأتها بالإنقلاب وأكدتها بالمرض، وذلك حين أعلنت السلطات الجزائرية الخبر، قلنا إذا كانت الأيام الأولى - وهي أزيد من شهر - سارت على هذا النحو، فإن أيام شهر نوفمبر شهدت ميلاد التسميات المختلفة لمرض بومدين، ووسائل علاجه وتكهنات بالموت القادم.

ولم تكن تلك الأخبار تصل مسامع الجزائريين إلا قليلاً ممن هم موجودون في الخارج أو السياسيين المتبعين للوضع، لذلك تعذر جمعها حتى بعد موته على مستوى المؤرخين والباحثين، ربما لعدم أهميتها بالنسبة لهم، وربما لأن الحقيقة الماثلة أمامهم الآن هي موت بومدين، بغض النظر عن الأسباب وعن الخلفيات.

غير أنني وأن أقرأ ما ورد في مختلف برقيات الوكالات

وجدت أن هناك أكثر من جهة كان يهمها موت بومدين، وليست من الخارج فقط، بل هي من الداخل، وربما هي من الداخل فقط، وتبقى جماعات الخارج تتمنى، أو تدفع، والخونة ينفذون.

وإذا كنا لا نستطيع أن نتهم أحداً، خصوصاً وأن الاتهامات، وجهت إلى الخارج حسب تصريحات بعض السياسيين العرب كما سنرى لاحقاً، إلا أن تتبع الخبر القادم من إسبانيا على النحو التالي يثير أكثر من إستفهام؟

«.. أذاعت صحيفة «بويبلو» الإسبانية الناطقة بلسان نقابات العمال أن الرئيس الجزائري هواري بومدين مصاب بسرطان، وأنه يرقد في مستشفيات موسكو داخل خيمة من الأوكسچين ويعالج بقنابل «الكوبالت»، وأن الأطباء السوفيات قد أكدوا أن بومدين سيقضى نَحْبَهُ خلال أيام معدودة، وقالت الصحيفة التي تصدر في مدريد أن هيئة التحرير بها، إجتمعت أمس (الجمعة) بزائر جزائري..»[9].

وبعد هذا بأسبوع وبالضبط في 11 نوفمبر 1978

ذكرت جريدة الأخبار المصرية، «أن أنباء العاصمة الجزائرية تؤكد أن بومدين الذي يعالج الآن في موسكو يعاني من حروق شديدة داخل البلعوم نتيجة شراب به مادة كَاوية دسَّها له خصومه، وقد أثرت هذه المادة على حنجرة بومدين، وأفقدته صوته..».

وهو خبر لم يعد ذا قيمة في ذلك الوقت، لأن اصابته في جزء من جسمه أوردته الوكالات قبل ذلك، إلا أن ما ذكرته وسائل الإعلام الإسبانية يؤكد على إصابته بمرض السرطان، وهو الخبر الذي يعد جديداً، بالمقارنة مع الأخبار السابقة.

والواضح أن الصحف الإسبانية قد بدأت بعد نشر الخبر الأول إلى التسابق نحو إذاعة أخبار جديدة عن بومدين ما دام غيابه صار يشكل الحدث الإعلامي الأكبر.

- فماذا فعلت يا ترى ؟

- أأضافت الجديد ؟!

- أم حاولت أن تشكك في الأخبار المتناثرة سابقاً ؟

تبدو الإجابة في التوقيت.

وتبدو أيضاً في صياغة برقية الخبر.

وتتجلى أكثر في سرعة نقل الوكالات للخبر.

فبالنسبة للتوقيت، فقد كان يوم 13 نوفمبر، أي قبل عودة بومدين من موسكو إلى الجزائر بيوم واحد، وقد تضاربت الأخبار حول سفره السري أكان يوم 14 أكتوبر أم يوم 15 أكتوبر؟، وبغض النظر عن الإجابة فقد قضى حوالي الشهر هناك؟[10].

أما صياغة الخبر فقد جمعت بين السبب السياسي للغياب وهو التخلص من المعارضين، وبين السبب الصحي الذي هو المرض، لكن هذه المرة لم يكن السرطان، وإنما المسالك البولية.

وتبرز سرعة نقل الخبر عبر مختلف الوكالات، إلى أن هناك توجيه مقصود للخبر بحيث يظهر في إسبانيا خصيصاً، وتبقى الأسئلة قائمة وإلى حين تتضح حول خلفيات مرض أو

اغتيال بومدين.

ولكن ماذا جاء في الخبر يا ترى؟ .. لنتابع :

مدريد في 13 نوفمبر - وكالات الأنباء : «أكدت اليوم صحيفة "دياريو" الإسبانية أن الرئيس الجزائري هواري بومدين - والموجود حالياً في موسكو - يعد لحملة واسعة للتخلص من معارضيه في الجزائر».. وأشارت الصحيفة إلى أن الرئيس بومدين يعاني من مرض في المسالك البولية، وأنه يقضي فترة نقاهة في موسكو..

.. ولكن ماذا بعد هذا الخبر ؟

.. هناك ما هو أخطر.

.. أخطر لأنه إستغلال لمرض بومدين.

.. وأخطر أيضاً لأنه يأتي بصيغ لم تعهدها الدبلوماسية الجزائرية.

.. وأخطر على صعيد ثالث لأنه أتبع بتحليلات أكدت جميعها على تغير سياسة الجزائر في المستقبل، وأن بومدين لم

يعد الرجل الأول في البلاد. غير أننا سنترك الخبر إلى وقت لاحق، ونواصل طريقنا داخل أخبار الوكالات والصحف بحثاً عن مرض بومدين.. وربما اغتياله!

لقد بات معروفاً الآن أن بومدين مريض، ولكن ما هو مرضه يا ترى؟.

رأينا كيف تعددت التفسيرات، وبالرغم من ذلك لم تستطع تحديد المرض، وعلينا أن ننتظر يوم 1978/11/17، لنعرف أن صحة بومدين في حالة تدهور مستمر، وذلك حين أعلنت السلطات المسئولة الخبر.

وبعد ذلك بيومين أي يوم 1978/11/19 نقلت مختلف وكالات الأنباء خبراً من الجزائر مفاده «.. قامت السلطات الجزائرية اليوم بطرد فرانسيس بوبالت مراسل صحيفة «لورور» الفرنسية بسبب ما نشرته الصحيفة من أنباء حول مرض الرئيس الجزائري هواري بومدين، وتدهور الأحوال السياسية والإقتصادية في الجزائر خلال الأسابيع الأخيرة».

ليس هذا فقط، بل أن الوكالات أشارت أنه يوم 18 نوفمبر 1978 قامت «قوات الأمن الجزائرية بإعتقال «ماريان لوشيه» المبعوثة الخاصة لمجلة "لوفيجارو"، وبعد إستجوابها وضعت تحت المراقبة في فندقها، ومنعت من الإتصال بالخارج».

ولم تشر الوكالات لسبب إعتقال مبعوثة «لوفيجارو»، إنما اتبعت هذا بخبر آخر هو : «إعترفت السلطات الجزائرية رسمياً لأول مرة بمرض هواري بومدين، وأعلن التليفزيون الجزائري إلغاء إجتماع مجلس الوزراء الذي كان مقرر عقده، وذلك بسبب حاجة الرئيس بومدين إلى فترة أخرى من العلاج..».

والحقيقة أن مرض بومدين قد أعلن قبل هذا التاريخ، كما وضحنا ذلك سابقاً، لكن الجديد في الخبر هو حاجة بومدين إلى العلاج، مما يعني تأكيد الخبر الذي ورد قبل هذا، وذهب إلى أن الحالة الصحية للرئيس في تدهور.

ولم تعد مسألة المرض هي الحدث الهام للصحافة

الدولية، بل صارت تبحث عن البديل المستقبلي لبومدين، وربما لهذا السبب سارعت إلى نقل تصريحات محمد بوضياف - زعيم حزب الثورة الإشتراكي - حسب ما جاء في الوكالات : الذي ذهب إلى القول : «أن بومدين في حالة غيبوبة، وأن إستعراض القوة بدأ فعلاً بين مختلف الإتجاهات حول خلافة بومدين..» وأشار في نفس البيان الذي نشرته الصحف المغربية إلى أن الدبابات على إستعداد للتدخل فيما أعلنت حالة الطوارئ في الحرس الجمهوري.

وإذا كانت الأخبار قد روّجت عن إستمرار تدهور صحة بومدين، وأن هناك صراعاً بين مختلف مراكز القوى على خلافته، فإن الكلام على نوعية المرض وتحديد طبيعته عادت في نهاية نوفمبر لتشكل محوراً تنافسياً بين الصحف.

ففي 24 نوفمبر نشرت صحيفة الأنباء الكويتية خبراً، استطاعت الحصول عليه من مكتبها في باريس - خاص بالهاتف - جاء فيه ما يلي :

«يوم أمس الخميس وصلت معلومات إلى الأوساط

الفرنسية في باريس من الجزائر أن هناك أمراً محيراً، وهو أن الأطباء الذين يشرفون على معالجة بومدين لم يتمكنوا من تحديد نوع المرض الذي أصابه، لذلك ترددت إشاعات أنه مصاب بالسرطان أو بأمراض أخرى، الأمر الأكيد الوحيد أن بومدين مصاب في كليتيه وفي مجراه البولي، وأن ذلك أدى إلى حدوث شلل جزئي، وجعله عاجزاً عن الكلام لكن بإستثناء ذلك لم يتمكن الأطباء الذين جاءوا من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا، والاتحاد السوفياتي، وكوبا، إضافة إلى الأطباء الجزائريين، لم يتمكنوا من تحديد نوعية المرض الذي أصاب بومدين في كليتيه وفي مجراه البولي.

وأضافت الصحيفة : «أكدت المصادر إنضمام أمس فريق طبي تونسي إلى الأطباء المتواجدين في الجزائر للإشتراك في معالجة بومدين...»

وكعادة فرنسا لبث سمومها دائماً، فقد أرادت إغتنام الفرصة والظهور بمظهر الدولة التي لا تغتنم الفرصة، فحسب الأخبار أنها منعت إنقلاباً ضد بومدين حين كان يعالج في

موسكو، وربما يكون العكس هو الصحيح، أي أنها حاولت عن طريق طابورها داخل الجزائر ولم تفلح، أو أنها فعلاً أبلغت بهذا ورفضت خوفاً من الفشل، وليس كما قالت الوكالات خوفاً من الصراعات الداخلية في الجزائر، ذلك لأن سياستها تجاه الجزائر الدولة المستقلة القوية هي إثارة الفتن والصراعات الداخلية.

وعن صحيفة النهار اللبنانية نقلت جريدة «الأهرام» أن السلطات الفرنسية منعت وقوع إنقلاب ضد بومدين فى أوائل الشهر الحالي كان يعتزم القيام به عدد من الضباط بزعامة الكونيل "سليمان موساتي"... وأضافت الصحيفة : أن قائد الإنقلاب وصل إلى باريس للتشاور مع المسئولين فيها بشأن القيام بإنقلاب ضد بومدين الذي عاد إلى الجزائر قادماً من موسكو حيث كان يعالج..»

وتقول صحيفة النهار أيضاً أن المسئولين الفرنسيين نصحوا الضابط الجزائري بألا يقوم بأي إنقلاب، لأن فرنسا لن

تتحمل مسئولية الصراعات الداخلية في الجزائر..»[11].

وبعد هذا الخبر بيوم واحد - أي 25 نوفمبر - أعلنت جل الوكالات «أن مرض الرئيس هواري بومدين نادر وغامض في الدم، ويعرف باسم «والدنستروم» ويؤثر على مناعة كرات الدم»...

أخيراً تحدد مرض بومدين وعُرف، وهذا المرض دائماً عاقبته الموت، وفعلاً مات بومدين، ولكن ما هي قصة مرض بومدين يا ترى؟.

ثالثاً: قصة مرض بومدين: البداية والنهاية

تشير بعض الكتابات الغربية إلى أن بومدين كان يعيش كثيراً من التناقضات والسبب في ذلك يعود إلى المرض الذي أصيب به «والدنستروم» الذي بدأت أول آثاره تظهر على الرئيس الراحل منذ 1973، واتخذت شكل حالات من التعب المجهول الأسباب، وحالة فقر دم بدا أنه لا مبرر لها،

إضافة إلى الهزال الذي ضرب جسم بومدين النحيل أصلاً[12].

وإذا صدقت مثل هذه الأقوال. فإن بومدين قاوم المرض لمدة فاقت الخمس سنوات، وهذا يعنى أن جميع القرارات التى أصدرها في تلك الفترة يعاد فيها النظر، وأعتقد أن الذين تابعوا وقرأوا خطابات وقرارات بومدين يدركون جيداً أن الرجل كان في كامل قواه العقلية وصحته... إذن فما أهداف الكتابة الغربية؟

يبدو أن الغرب سار على أسلوب واضح، وهو إعطاء المسائل الخاصة بعداً كونياً، فإذا كان «ديجول» مثلاً مريض، فكل قادة العالم كذلك، وإذا كان كيندى زيراً للنساء فلابد أن يكون العالم على هذا النحو، غير أن هذا القول لا ينفي أن بومدين عاش الأيام الأخيرة من حياته يعاني المرض، سواء أكان ذلك نتيجة للسم كما يقول البعض، أو نتيجة للمرض الذي حدده الأطباء.

كثير من الذين تكلموا عن مرض بومدين أشاروا إلى أن حالته الصحية ساءت كثيراً في 24 سبتمبر 1978، بعد عودته من دمشق حيث شارك في قمة دول عربية هناك، وبدا عليه الإنهاك بصورة واضحة، فتوجه به أطباؤه فوراً إلى المستشفى العسكري، الذي أشارت فحوصه وتحاليله إلى وجود خلل في الأداء الكلوي عند الرئيس، لكن هذا لم يعط تفسيراً لما لوحظ على الرئيس وقتها، إذ ظهر عليه شلل خفيف أصاب وجهه.

ونتيجة لذلك إعتقد الأطباء الجزائريون أن الأمر يتعلق بسرطان في الكلى، وتحديداً في الغدتين الموجودتين فوق الكليتين، فأدخلوا الرئيس إلى قسم الأمراض البولية حيث أظهرت العناية المركزة أن التشخيص الأول غير دقيق.. غير أن هناك من يرى في الأقوال السابقة نهاية المرض، والدخول في مرحلة الموت، حجته أن علامات المرض بدت على الرئيس قبل هذا بشهور أي بعد أن عاد من يوغسلافيا وبعد حضوره قمة الخرطوم التي تصدرت جدول أعمالها موضوعات وقضايا عربية ساخنة من ذلك السلام بين مصر وإسرائيل، والقضية

الفلسطينية وقضية الصحراء الغربية[13].

المهم أنه بعد عودته من يوغسلافيا اشتد عنه السعال، وكان معروفاً بحساسيته المفرطة تجاه إصابات البرد والزكام.. ورغم حرارة الجو أحس الرئيس برعشة شديدة وحالة برد، فطلب من أحد وزرائه أن يحظر له طبيباً يفحصه.

«جاء الدكتور "عبد الحفيظ أوشريف" إلى القصر مسرعاً، واستغرق في فحص الرئيس فترة طويلة لكنه لم يصل إلى نتيجة محددة، واقترح نقل الرئيس إلى المستشفى العسكري لإجراء مزيد من الفحوصات»[14].

بعد إجراء سلسلة طويلة من الكشوف والاختبارات الطبية أدرك كبار أطباء الجزائر أن الرجل مصاب بمرض غير واضح المعالم، فاقترح الدكتور أوشريف أن يحمل صور الأشعة إلى مدينة ليون الفرنسية، حيث يمكن أن يعرضها على بعض أصدقائه الأطباء المختصين... وبعد أيام عاد أوشريف بحقيبته مغلقة داخلها تقرير سري عن حالة هذا المريض الذي لم يكشف عن إسمه لأصدقائه الفرنسيين[15].

وأوضح التشخيص أن بومدين مصاب بسرطان في المثانة، ويجب أن يدخل غرفة العمليات فوراً لإستئصال الورم الخبيث، ومن المفضل أن يتم هذا في إحدى المدن الغربية، ومن الأحسن أن تكون مراحل العلاج في مستشفى أمريكي، ورفض بومدين أن يعالج في الغرب، لكرهه الشديد له. ولخوفه من التعرض إلى حملة إعلامية شرسة هناك.

وأجل بومدين العلاج، وكأنه لا يبالي، وانغمس في مسئولياته.. وسافر بعد ذلك إلى دمشق، حيث كان عليه أن يحضر قمة الصمود والتصدي التي خصصت لاتخاذ موقف عربي موحد من كامب دفيد.

وفي يوم السفر، اشتد الألم على الرئيس فاصطحبه طبيبه الخاص، وسط إجراءات أمنية مشددة حتى لا يكشف أحد مرضه[16]، وأثناء وجوده بدمشق إلتزم بالبقاء شبه الدائم في مقر إقامته، فلم يظهر لمندوبي الصحف ولم يخرج للقيام بزيارات إلا في حالة نادرة جداً.

ويذهب البعض إلى القول : أن المرض لم يعط فرصة لبوسدين أثناء وجوده في سوريا فقد اشتد عليه إلى درجة أن بعض رجاله لحقوا به ذات مرة، عندما كاد يقع فجأة بعد إصابته بحالة إغماء مفاجئة، كما لاحظ مرافقوه أنه يصاب برعشة من آن لآخر، ووصل الأمر إلى حد أنه يدخل في حالات من السهو المباغت، ومع ذلك فقد استمر في صموده المعروف به.

ولما زاد الألم قرر الوفد الجزائري أن تخفض مدة الزيارة، ذلك أن الرئيس إستدعى وزير خارجيته عبد العزيز بوتفليقة فجأة وقال له :

« لنعد الليلة إلى الجزائر.. أريد أن أموت في فراشي...»(17).

وتذكر المصادر أن بومدين جلس في الطائرة، وقد بدا عليه الاجهاد، تشنج لا يستطيع الإسترخاء... غارت عيناه، وعلت مسحة من الانقباض على وجهه، وضاعت منه ملامح الشباب.

ولم تنفع المحاولات المستمرة التي بذلها فريق الوفد، خصوصاً عبد العزيز بوتفليقه أثناء الرحلة من سوريا إلى الجزائر، وفي نهايتها أشار الرئيس إلى مساعده، فأسرع إليه بوتفليقه قائلاً :

«إن شاء الله لا بأس يا سي بومدين..»

لكن الرئيس بومدين لم يرد، إنما أمر مساعده – من خلال أذنه – بطلب محدد : لنهبط في مطار بوفاريك العسكري،.. على أن تحط بنا الطائرة فيما بعد في مطار الدار البيضاء».

ونفذ طلبه كما أمر، وهبطت الطائرة وسط إجراءات أمنية مشددة وفي سرية تامة، أشرف عليها – حسب بعض التصريحات – شخصان كانا ينتظران خارج الطائرة أحدهما في لباسه العسكري، والثاني مدني..

ومن الباب الخلفي للطائرة نزل أعضاء الوفد المرافق للرئيس، ومنه إلى خارج المطار، في حين كان بومدين يشير إلى «بوتفليقه» أن يقترب منه ليستند عليه ويواصل السير حتى

الباب، ثم ينزل السلم في فترة زمنية طويلة. حتى أن منتظريه قد أسرعوا إليه ليصافحوه في منتصف المدرج.. بعد أن عز بهم الإنتظار، وهم يرون بومدين بنهار بهذه الطريقة.

وبعد وصول بومدين بعشرة أيام (أى في خمسة أكتوبر) بدأ الإتصال بموسكو، وهذا حسب الكتابات الغربية في حين يرى السوفيات أن الاتصال كان قبل ذلك بمدة[18]، غير أن هناك من يذهب إلى القول «أن بومدين سافر بالفعل يوم 5 أكتوبر 1978، ويسرد القصة على النحو التالى :

« في يوم 5 أكتوبور الماضي كانت الطائرة الجزائرية تستعد للإقلاع في طريقها إلى موسكو طائرة عادية ورحلة معتادة، وركاب قليلون يعدون على أصابع اليد الواحدة، فالمعروف أن هذا الخط - الجزائر / موسكو - لا يستخدمه إلا كبار الزوار من الجزائريين والسوفيات، وطائرة شركة الخطوط الجوية الجزائرية التي تعمل في هذا الخط، تقلع عادة شبه خالية من الركاب، وعلى غير العادة في هذا اليوم، فوجيء الركاب القليلون بمن يطلب منهم النزول من الطائرة التي كانت تستعد

للإقلاع بالفعل، ولم يقدم لهم أي تفسيرات لإلغاء سفرهم وإبعادهم عن الطائرة، وعن المطار ذاته! وحتى لو سأل الركاب عن السبب، فإن أحداً لم يكن في استطاعته الإجابة!.

المهم أن الركاب الأربعة أبعدوا من الطائرة، في اللحظة التي وصلت فيها ثلاث سيارات تابعة للأمن الحربي الجزائري، وتوقفت عند سلم الطائرة، وبسرعة البرق نزل ركاب السيارات، وصعدوا إلى الطائرة التي أقلعت على الفور في طريقها إلى موسكو.

وكان الرئيس هواري بومدين أحد هؤلاء الركاب.. طار سراً إلى موسكو بلا مراسم التوديع المعتادة، وبلا دقات الطبول، أو صفير المزامير...»[19].

والحقيقة أن خبر سفر بومدين يوم 5 أكتوبر إلى موسكو، جاءت به العديد من الصحف من ذلك ما أوردته «مجلة باري ماتش»، من أن هناك طائرة عادية، كان المفروض أن تغادر الجزائر على التاسعة والربع صباحاً، لكن لم تسافر في الوقت المحدد، وأنزل منها ركابها الأربعة[20].

وبغض النظر عن التاريخ الذي سافر فيه بومدين للعلاج في موسكو، فإن أول من تعامل معه هم الأطباء السوفيات الذين أجروا له الفحوص الأولية، وتأكدوا من أنه مصاب بمرض شديد، قد يكون - حسب تصريحات الأطباء الروس بعد ذلك - ذات طبيعة فيروسية، وتمثلت مضاعفات المرض في إلتهاب وتسمم الكبد. ويؤكد الأطباء السوفيات أنه عند بداية العلاج بدا للوهلة الأولى، وكأن حدة المرض تتراجع، وبدأت أعراض وعلامات إلتهاب الكبد في الخفاء لكن قلقهم إستمر لأن جسد الرئيس بومدين لم يتخلص من هُزَاله.. ودرجة حرارته تعاود تسجيل إرتفاع طفيف، وكرات الدم البيضاء تتزايد هي الأخرى، وإن لم يكن تزايد شديد الإرتفاع.

وقد لاحظ الأطباء السوفيات تغيرات مرتبطة بإختلال جهاز المناعة في جسد بومدين، وظهر ذلك الإختلال بصورة واضحة على مادة «الجلوبيولين..»، وللعلم فقد شارك في التوصل إلى تشخيص حالة بومدين ووضع نظام العلاج لها أفضل الأطباء السوفيات، وجرت - حسب تصريحات

الأطباء الروس - في حضور الأطباء الجزائريين وبمتابعة «أنيسة» زوجة الرئيس.

ثم عاد بعد ذلك إلى الجزائر في 14 نوفمبر رفقة فريق طبي روسي، وفي 19 نوفمبر لوحظ أن مجموعة من خيرة أطباء البنج والأمراض البولية ونقل الدم في فرنسا قد جاءوا إلى الجزائر، دون إكتراث بالموقف السياسي والأديولوجي للرئيس بومدين تجاه فرنسا الاستعمارية.

وأحضر الفرنسيون معهم أجهزة لتطهير الدم من كرات البلازما غير الطبيعية بعد ضخ دم المريض، وإرجاعه على شكل كرات حمراء وكريات بيضاء ومسميات دموية مع بلازما طازجة من إنسان سليم أو بلازما إصطناعية، وبذلك نتنحى الكريات البيضاء جانباً.

وبدأ الأطباء يأتون من كل حدب وصوب، وهو ما سنتابعه تفصيلاً في الفصل القادم، لكن قبل ذلك لنعد ثانية إلى أخبار الوكالات وتلك الرسالة التي تحدثت عنها، والتي تقول أن بومدين بعث بها إلى الرئيس ديستان فما حقيقتها يا ترى؟!

● رابعاً : بومدين - ديستان - والرسالة اللغز :

ما تزال الرسالة التي تحدثت عنها وكالات الأنباء أنذاك تثير عدة استفهامات، وهي رسالة - حسب إدعاءاتها - بعث بها بومدين إلى نظيره الفرنسي، وهو يعبر الأجواء الفرنسية.

ويأتي الإستغراب أساساً من كون فرنسا في ذلك الوقت تتابع بحذر تنامي دور الجزائر، وكان الرئيس ديستان يرى أمامه مستعمرة الأمس، وقد أصبحت دولة مُهابة الجانب، فبدأ هو الهجوم من زاوية بعيدة حسب رأي الكاتبة الصحفية فايزه سعد. وفي ذلك الوقت كان البترول هو أقوى ورقة في يد العرب، لذلك دعا الرئيس الفرنسي فاليرى جيسكارديستان إلى عقد مؤتمر دولي للطاقة، لكن جزائر بومدين عارضت الفكرة، واقترحت أن يكون الموضوع بنداً في مناقشات ندوة تعقدها الأمم المتحدة، وتشمل النظام الإقتصادي العالمي،

وكانت الجزائر في ذلك الوقت ترفع درجة التحدي إلى أعلى مستوى، إذ لم تكن كلمة الإقتصاد العالمي التي طرحتها قد طرحته من قبل، وكان معنى الكلمة بوضوح أنها تتمرد

علـى الكبـار، وفعـلاً أصيب ديـستـان بخـيبـة أمل من مـوقف الجزائر!.

إذن كيف لـبومدين أن يـبعث برسـالة إلى ديستـان وهو مريض، ولـم يفعل ذلك من قـبل منذ مجـيئه إلى السـلطة ولو بالإشارة؟!

* من بعث بها، ومن صاحب الفكرة أساساً ؟

* ما أهدافها في زمانها، وفي المستقبل ؟

والحقيـقة أنني لا أملك إجابـة لهذه الأسئلة، خـصوصاً، وأننى أعترف أمـام القاريء بعدم إطلاعي علي نصـها لأسباب كثيـرة - ليس هنا مجال ذكـرها - علماً أن الأوساط الفـرنسية المسئـولة آنذاك لم تدل بأي تعليـق عن تلك الرسالة المشـبوهة، لكن المراقبون السياسيون أيدوا عدة ملاحظات آنذاك، أهمها :

- تشكل هذه الرسالة لفتة دبلـوماسية من جانب الرئيس بومدين بعـد إحتجاب دام عدة أسـابيع في الإتحاد السوفـياتي، ويمكن أن تفـسر على أن الزعـيم الجزائري إنتـهز الفرصة غـير العادية للطيران فوق الأراضي الفرنسية للإعراب عن رغبته في

التقرب لفرنسا.

- وصفت لهجة البرقية بأنها حارة، خاصة عندما أكد إستعداد الجزائر الكامل لتنقية جو العلاقات الفرنسية - الجزائرية، ورغبة زعمائها في إجراء حوار معها، وبدء صفحة جديدة من التاريخ مثل ماضي زعماء حوض غربي البحر المتوسط.

- أحدثت الفقرة الخاصة بمشكلة الصحراء الغربية عدة تساؤلات لدى المراقبين.

من ناحية أخرى فإن الصحف الفرنسية علقت عن تلك الرسالة المزعومة وقالت أنها تتسم لأول مرة بلهجة معتدلة، وتدعو لصفحة جديدة من التعاون مع فرنسا.

وقالت صحيفة لوماتان (Le Matin) الفرنسية «أن الخبراء الفرنسيون عاكفون على دراسة نص هذه الرسالة التي صيغت بأسلوب جديد لم يسبق للجزائر أن استخدمته في الدعوة لتجديد التعاون مع فرنسا.

وأضافت «لومانان» أن الخبراء يرون كل كلمة في هذه الوثيقة التي يتفق الجميع على أن كاتبها ليس هواري بومدين، ولكنه عبد العزيز بوتفليقه - وزير الخارجية أنذاك - وبناء على ذلك يتساءل البعض كما تقول الصحيفة عما إذا كان ذلك دليلاً على أن هواري بومدين الذي ألم به المرض لم يعد ممسكاً بزمام المبادرة السياسية؟»[21].

إذا كان الخبراء الفرنسيون قد إتفقوا أن الرسالة لم يكتبها بومدين، وليس هناك جزم بأنها كتبت من طرف عبد العزيز بوتفليقه، فإننا سنظل ننتظر الإجابة للسؤال التالي : من كتبها إذن ؟

- وهل حين كتبت كان بومدين ميتاً أم حياً ؟

وتبعاً لذلك أيُعد صاحب الرسالة من الذين ساهموا في موت بومدين؟

إذن بومدين أغتيل.. ولم يمت طبيعياً.. لنعرف ذلك نتابع الفصلين القادمين.!.

هوامش الفصل الأول

(1) نقصد مؤتمر جبهة الصمود والتصدي، الذي عقد في سوريا، ولم يستمر بومدين في جلساته حتى ينتهي، لأن المرض داهمه، وحسب مصادر سورية، أبلغت الكاتب أن بومدين، أحس بآلام فظيعة في البطن، فقرر العودة، وقال : أُفَضِّل أن أموت في الجزائر.

(2) يقصد الخبر هنا، حزب الزعيم التاريخي حسين أيت أحمد، ومطلب الجمعية التأسيسية نادى به منذ الإستقلال، كما أعاد المطالب به بعد أزمة الجزائر بعد إلغاء نتائج الإنتخابات في 1992.

(3) من المدهش أن يطالب حزب أيت أحمد بتطبيق الميثاق الذي أجرى الإستفتاء عليه في 1976 في جو ديموقراطي، ليحكم نظام بومدين بنفس الميثاق الذى أنشيء في مرحلة حكمه.

(4) أنظر، الأهرام عدد 1978/10/15 .

(5) أنظر صحيفة «السياسة» عدد 1978/10/17 .

(6) الأهرام عدد 1978/10/22 .

(7) جريدة «الأخبار» - مصر - عدد 1978/10/24 .

(8) يشير الحوار الذي أجراه عبد العزيز بوتفليقه مع "الرأي العام الكويتية"، والذي نقلت عنه مختلف وكالات الأنباء، والصحف، ومنها الصحف المصرية التي نقلنا عنها الخبر، عدة استفهامات، أهمها : الرسالة التي تقصد السلطات الجزائرية تمريرها للرأي العام الوطني والعالمي؟ وهل لمحاولة الاغتيال تلك علاقة بما أوردته الوكالات في بداية مرض بومدين؟ ولماذا إخفاء المرض لمدة تجاوزن 40 يوماً؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي نجبر عن العودة إليها كلما تأملنا مأساة بومدين في أيام مرضه، وفي تحطيم إنجازاته بعده.

(9) الخبر أوردته وكالة الأنباء الفرنسية بتاريخ 1978/11/4 .

(10) من المؤكد أن السلطات الجزائرية تعرف التاريخ، وعلى المسئولين الآن تحديده، لأنه يفيد الباحثين والمتتبعين في معرفة الكثير من الخلفيات.

(11) نقلاً عن الأهرام عدد 25 نوفمبر 1978 .

(12) أنظر كتاب «هؤلاء المرضى الذين يحكموننا». صدر بالفرنسية، الطبعة الثانية، ترجمت بعض فصوله صحيفة "الوطن" الكويتية، وسيرد شرحاً موسعاً للكتاب في الفصلين اللاحقين.

(13) ترى بعض الأوساط الجزائرية المطلعـة، أن بومدين بعد عودته من الخرطوم، إتجـه إلى يوغسلافيـا، وهناك تعرض للـمرض، وأجرى فحـوصات، وقـضى أيامـاً للإستـجمام والـراحة، وهذا يـعني أن زيارته للعراق، ثم لسوريا بعد ذلك، تـعد نتيجة لما وقع قبل ذلك، وليس بداية القصة، غـير أن أطرافـاً تؤكد أن ظهـور المرض الذي أدي به إلى الغيبوبة ثم الموت، كان في سوريا.

من ناحية أخرى فإن عدة جماعات مسئولة في الجزائر، تقول : أن عبد المجيد علاهم مدير التشريفات - رحمه الله - أكد عدة مرات على أن المرض ظـهر على بومدين عند وصـوله إلى سوريا، وقـد اضطر إلـى عدم المشاركـة في المـؤتمر والعـودة سـريعـاً إلى الجزائر، وهذا يعني أن المرض كان من خارج سوريا.

(14) نشرت مجلة روزاليوسف - المصرية العدد 3329 - 30 مارس 1992 - مقـالاً مطولاً للكاتبـة الصحفـية «فايزه سعـد» في أربع صفحـات، واعتبرته سراً تنفـرد بنشره أكدت فيه عـلى أن بومدين مات مقتولاً، وعنه نقلنا الفقرة السابقة.

(15) حادثة عرض المـلف الطبي لبومديـن على أطباء متخـصصين في فرنسا تحت إسم آخر، أكدها أكثر من مرة، قاصدي مرباح، رئيس الحكومة في أواخر عهد الشاذلي ورئيس جهاز المخابرات في عهد

بومدين، وقد سمعتها منه وسمع كثير من الشباب في مدينة سطيف - ديسمبر 1990 بمناسبة الإحتفال بذكرى وفاة بومدين.

(16) أكد لي العماد الأول ووزير الدفاع السوري مصطفى طلاس أن بومدين عاد من العراق إلى الجزائر، ثم جاء إلى دمشق بعد ذلك، وسنرى ذلك في الحوار الخاص معه، في الفصل الأخير من الكتاب.

(17) روزاليوسف، العدد 3329، ص 23 ، مرجع سابق.

(18) يقول شازوف كبير أطباء الكرملين أن الجزائريين بدأوا الإتصال بالمسئولين السوفيات في أيام سبتمبر، والواضح أن المقصود هو نهاية سبتمبر، في حين ترى بعض الكتابات الغربية أن الاتصالات بدأت يوم 5 أكتوبر، وسافر بومدين يوم 14 أكتوبر، وأعتقد أن هذه المعلومات كلها تقريبية، وبالتأكيد أن المسئولين الجزائريين آنذاك يعرفون بالطبع اليوم تحديداً.

(19) الفقرة السابقة منقولة من تحقيق أعده لجريدة الأخبار - المصرية - الصحفي إبراهيم سعده تحت عنوان «سرّ إختفاء بومدين (1978/11/8)، والصحفي معروف بعدائه للجزائر في كتاباته، ولا يعقل في أي دولة في العالم، أن تنقل رئيسها المريض في طائرة عادية إلاّ إذا كان ذلك يتعلق بأهداف أمنية ماتزال مجهولة.

وفي بداية التحقيق كتب ما يلي : «.. فالحاكم في الدول التي تحكم بالرأي الواحد وتُساق بالقرار الأوحد مثل الجزائر، يتصور أنه تعدى مرحلة البشر، بمعنى أنه لا يمرض كما يمرضون ولا يتداعى صحياً كما يتداعون...» وللقارئ أن يفهم الظاهر والخفي في هذه الكتابة العدائية.

(20) نقلاً عن تحقيق نشرته جريدة الأهرام المصرية يوم 18/11/1978 ترجمة حرفية لما ورد في مجلة «باري ماتش» الفرنسية، وقد كتبت الأهرام ملاحظة جاء فيها «.. ننشره دون تعليق، ونترك كل سطر فيه يتحدث عن نفسه...» والحقيقة أن نشر التحقيق الفرنسي مترجماً إلى العربية يتطلب أكثر من تعليق وأكثر من وقفة، كما أن العنوان الذي نشر به يتطلب تحليلاً، فقد كتب على النحو التالي :

ما الذي يجري في الجزائر، أو ما الذي يمكن أن يجري في الجزائر في المستقبل القريب؟! إضافة إلى ذلك فقد تزامن مع تحقيق إبراهيم سعده في الأخبار، إذ كانا في نفس اليوم، وبنفس العبارات، فهل هي هجمة على الجزائر لقيادتها لدول الصمود والتصدي؟ قد يكون ذلك، وقد يكون ما هو أخطر؟

(21) أنظر الأهرام عدد 16 نوفمبر 1978 .

* * *

الفصل الثانى

« الجسد المتهاوي.. والأطباء المتصارعون »

- أولاً : أسرار مرض بومدين على لسان كبير أطباء الكرملين.
- ثانياً : السوفيات والخروج من المأزق.
- ثالثاً : أطباء من كل حدب وصوب.
- رابعاً : والدنستروم.. وبلاغ الموت.
- خامساً : الأطباء السوفيات : بومدين تعرض لمواد سامَّة.

إنتهينا في الفصل السابق إلى سؤال «هل الرسالة التي أرسلت للرئيس الفرنسي ديستان وكتبت بإسم بومدين بُعث بها، وبومدين حياً أم ميتاً؟». وقلنا بشكل مختصر ومباشر أنه بالعودة إلى تاريخ تلك الفترة نحس برائحة خيانة من طرف مجهول، هذا الطرف هو المستفاد من غياب بومدين.. وبالتالي قد يكون ساهم في اغتياله أو ساهم في تعرضه لمرض لم يعرف إلا بعد أن وصل بومدين إلى مرحلة الخطر.

لكن هل هذا حقيقة أم إستنتاج ؟

وهل مجرد تهمة لم تثبت لطرف مجهول أم إدانة ثابتة وتهمة واضحة لها دلائلها؟ ثم ماذا يفيد الآن إن كان قد مات أو أغتيل ؟

أما بالنسبة للسؤال الأول فإنه مجرد إستنتاج لكنه يكاد يرقى ليكون واقعة مجسدة وحقيقة مؤكدة.

وهو أيضاً مجرد تهمة يبقى البحث عن براءة أصحابها مطلباً وليس العكس، أي أنهم متهمون في نظر الشعب والتاريخ بما أخفوه من حقائق.

وكذلك هي تهمة لا تخص طرف واحد، ولكن تعني عدة أطراف، ليس لأن بومدين أصيب بمرض، ولكن لأن حقائق المرض وخلفياته بقيت خافية علينا إلى الآن.

أما فائدة البحث، فإن أهم ما فيها هو إرساء قواعد جديدة في الجزائر، فلا يعقل أن تمر جميع الأحداث دون الكتابة أو الإهتمام، بالرغم من أن هذه الكتابة وغيرها ستكون البدايات، فالسّاسة - وصناع القرار عموماً - حياتهم لا تخصهم وحدهم أو تخص أقاربهم فقط، بل تخصنا جميعاً.

والمعروف «أن مرض بومدين كان ولم يزل، يمثل إحدى القضايا الأساسية بالنسبة للرأي العام، فصورة البطل لم تمح من الذاكرة، وبما أن البطل لا يسقط إلا بعد معارك كبرى، فلما لا يكون بومدين - في نظر الرأي العام - قد سقط نتيجة للاغتيال.

.. فهناك من قال : الموساد الإسرائيلي وراء مرضه ثم موته.

وذهب آخر، إلى القول : أن أطراف عربية كانت وراء

اغتياله، واتهم علانية صدام حسين.

وثالث أشار: أن التصفية تمت من الداخل، أي من الذين كانوا حوله.

وتتسع تلك الأقوال، وتزيد أو تنقص حسب خيال المواطنين، حباً له أو كرهاً ظلماً أو عدلاً، ضنكاً أو رغداً، فكلما سارت البلاد نحو وضع معين، كلما عادت قصة مرض بومدين، أو اغتياله لتصبح مثار الرأي العام.

وما ينطبق عن الجزائريين يكاد أن يكون هو نفسه ما يحدث على مستوى الوطن العربي، فهناك شرح لمرض بومدين بين الحين والآخر في أكثر من صحيفة عربية وأحياناً يتحول الكلام عن المرض إلى إتهام بالقتل بشكل واضح بالسم كما هو الحال بالنسبة لمجلة روزاليوسف»[1].

وبغض النظر عن التأويلات المختلفة للتكهنات والتخمينات، أو حتى لتصريحات بعض المسئولين في الوطن العربي، فإنه علينا أن نتابع المرض منذ ظهوره، ورأي الأطباء فيه.

وقد كنا في الفصل الأول نحاول تلمّس البداية، خصوصاً بعد أن تضاربت الأخبار في وكالات الأنباء العالمية، ووقف الطب عاجزاً في البداية عن تحديد المرض، فإننا في هذا الفصل سنذهب إلى أبعد من ذلك، دون التخلي عما ذكرناه في البداية.

إننا في هذا الفصل سنحاول البحث عن ذلك الخيط الذي يربط بين المصالح السياسية وبين المواقف المبدئية من جهة، وبين مرض الزعماء من جهة ثانية، ذلك لأن مرض بومدين، حاولت أطراف عدة إستغلاله لصالحها، وبدا فيه التنافس بين الطب السوفياتي، والطب الغربي، في الوقت الذي كان فيه المرض يزداد ويشتد ويسحب بومدين نحو القبر.

لقد جعل مرض بومدين الروس في مأزق، لكن خرجوا منه بفضل عزم بومدين عن العلاج في الجزائر.

وجعل مرضه أيضاً أطباء الغرب في مأزق حين عجزوا عن تحديده، بعد أن اتهموا الأطباء السوفيات بالفشل.

ويبدو أن مرض بومدين سبّب بعد ذلك الكثير من

الإنتقادات للأطباء لا لأنهم لم يتمكنوا من إنقاذه - لأن ذلك يتجاوزهم - وإنما لأنهم حاولوا إثبات قدرة هذه المدرسة أو تلك على تقديم خدمة عاليه - إن جاز التعبير - للدولة الجزائرية.

وباختصار وفي الصدام بين الغرب والشرق لم ينج منه بومدين وهو سليم، ومن الطبيعي أن لا ينجو منه وهو مريض، ولم يعرف هذا إلا بعد فراقه بسنوات، فكيف بدأ مرض بومدين، كيف كانت اللحظات الأولى لوصوله، ولعودته بعد ذلك؟ وهل فعلاً فصل الموت في الجزائر عن غيرها؟.. إجابات هذه الأسئلة وغيرها نتابعها ضمن هذا الفصل.

• أولاً : أسرار مرض بومدين على لسان شازوف كبير أطباء الكرملين :

لم يعد هناك أسرار في الإتحاد السوفيات .. لأن «بروسترويكا» الرئيس ميخائيل جورباتشوف، وما بعدها قد قضت على كل شيء، وإذا كانت كثير من تلك الأسرار التي

كشفت قد أضرت بالإتحاد السوفياتي السابق، فإن تلك الأسرار أفادت أطراف أخرى.

ومن بين الأسرار التي نشرت منذ سنوات غير بعيدة، تلك المتعلقة بصحة الرؤساء والقادة، من ذلك الكتاب الذي نشره "شازوف يفجيني" كبير أطباء الكرملين تحت عنوان: "السلطة والصحة"، ويهمنا منه الجزء الخاص بمرض الرئيس هواري بومدين.

وما طرحه البروفيسور يفجيني يجعلنا نعيد النظر في العديد من الملابسات الغامضة والتشخيص الطبي، الذي ظهر بعضاً منه، وظل الآخر طي الكتمان، وبقيت الكثير من علامات الإستفهام حول رحيل الزعيم نهاية 1978.

وترى صحيفة الأنباء الكويتية «إن ما ذكره البروفيسور يفجيني كبير أطباء الكرملين يعد إحدى مفاجئاته، وترى أن ما يتضمنه الكتاب عن وفاة بومدين يفتح الباب واسعاً للملابسات السياسية التي أطاحت بالزعيم الجزائري من تاريخ بلاده والمنطقة العربية، ويضع أمام الجميع مسئولية فتح ملفات

مرض وموت الرئيس الجزائري من جديد[2].

يقول البروفيسور شازوف : «.. واجه الإدارة الرابعة التابعة لوزارة الصحة السوفياتية على الصعيد الداخلي إحباط سعت دوائر معينة في الشرق والغرب للإستفادة منها لتحقيق أهدافها السياسية... ولقد سادت في الأحداث غربة، رغم أنني خُبِرت خلال عملي كافة النوازع الأنانية والشريرة للزعماء السياسيين ومراعاة المصالح القومية بين الدول المتنازعة.

وكانت قمة ما حدث لرحلة علاج الرئس الجزائري الأسبق هواري بومدين واحدة من هذه الإحباطات والأحداث الغريبة التي تكشف عن «اللاأخلاقية» التي تنطوي عليها الصراعات السياسية أحياناً..

وكانت قمة المأساة في محاولة إستغلال مرض وإحتضار زعيم عربي كبير من أجل غايات سياسية خسيسة، ولزعزعة الثقة بيننا وبين الجزائر، وبث الكراهية من خلال التشكيك في الطب الروسى».

ما هي «اللاأخلاقية» التي يتحدث عنها الطبيب

شازوف؟

وكيف استغل مرض بومدين من طرف الغرب ؟

وهل فعلا زعزعت الثقة المتبادلة بين السوفيات والجزائريين ؟

وهل الصراع بين الشرق والغرب يشمل كل المجالات بما في ذلك الإنسانية والتي منها المرض.. والعلاج؟

وقبل أن نواصل سرد ما ذكره البروفيسور يفجيني، تبدو لنا الصورة جلية على أن بومدين كان يمثل خطراً عن الجميع خصوصاً الغرب، وهذا معروف، لكن أن يحولوه إلى ضحية من أجل أهداف سياسية في المنطقة هو الأمر الذي لا يمكن تفضيله، ليس لأن الصراعات السياسية بعيدة عن هذا، وإنما إستغلال المرض للأهداف القومية للدول هو الأمر المرفوض.

وعلى العموم سنجد الإجابة للأسئلة السابقة، أو بعضاً منها في أقوال وشهادات البروفيسور شازوف، الذي يضيف قائلاً:

«... تبدأ القصة أيام شهر سبتمبر الملبد بالغيوم عام 1978... إتصل بي، إليكسي كوسيغين رئيس الوزراء السوفياتي آنذاك، وقال بينما جاء صوته مضطرباً عبر الهاتف:

«لقد وصلتني للتو برقية - تلغراف - من الجزائر تخبرنا بأن الرئيس هواري بومدين قد استقل الطائرة صباح اليوم إلى موسكو للعلاج...»

وأضاف كوسيغين، وفي نبرة صوته الدهشة.. «الغريب أن هذا الطلب جاء مفاجئاً، إذ لم تطلب الجزائر من قبل تنظيم رحلة علاج لبومدين».. وسألني كوسيغين: «.. ربما تعرف شيئاً عن هذا الموضوع» وأجبته: «إنني مثله تماماً أسمع بالنبأ للمرة الأولى..». وأتذكر أن كوسيغين أضاف قائلاً في المكالمة الهاتفية ذاتها: «يبدو أن شيئاً غير طبيعي حدث..» وأشار إلى أنه غير المستبعد أن يكون بومدين مريضاً، وأن المسئولين في الجزائر يحاولون إخفاء طبيعة مرض زعيمهم كما يحدث في البلاد العربية عادة، وأن دبلوماسيينا في الجزائر لم يتابعوا الموقف جيداً ليعرفوا ماذا يحدث!». وانتهت مكالمة كوسيغين

بتكليفي بإستقبال بومـدين لدى هبوطه في المطار ونقله للعلاج فوراً..

واقترح رئيس الوزراء مـستشفى شارع مينـستور نسكي في موسكو حيث القليل من المرضى، مما يمكننا من الحفاظ على سرية رحلة الرئيس الجزائري. وإخفاء شخصيته...».

ولسوء حظ الأطباء الروس بدا، وكأن الرئيـس بومدين ذهب إلى الإتحاد السوفياتي في صحة طيبة. أو على أسوأ تقدير مصاب بمـرض ضعيف، وبعد شـهرين عاد إلى بـلاده في حالة خطيرة تصحبه مجموعة من الأطباء السوفيات.

ولكن الذين روجوا لهذا التصـور لم يسألوا أنفسهم لماذا اضطر بومدين لـقطع آلاف الأميال بطائرته للـعلاج في الاتحاد السوفياتي؟ وهـل كانت تلك الرحلة المضنية لمجرد الإسـتشفاء من مـرض بسيط كـالزكام مثلاً.. ألم يكن بـإستطاعـة الرجل حينئذ أن يستريح في منزله لبضعة أيام.

بالطبع كـانت الأمور أخطر من ذلك بـكثير فبـعد رحلة الرئيس الجـزائري في دول الشرق الأوسط ظـهرت فجأة عـليه

أمراض حُمَّى وإرتفاع في درجة الحرارة لم تتمكن الأدوية العادية من التغلب عليها.. وبدأت حالته في التدهور.. وأصر بومدين نفسه على التوجه إلى الإتحاد السوفياتي في رحلة عاجلة...».

وبعد إجراء الفحوص الأولية لم يعد لدينا أدنى شك في أن الرئيس الجزائري يعاني من مرض شديد قد يكون ذا طبيعة (فيروسية) وتمثلت مضاعفات المرض في إلتهاب وتسمم الكبد..

وبعد أن بدأنا العلاج بدا للوهلة الأولى، وكأن حدة المرض تتراجع، وبدأت أعراض وعلامات إلتهاب الكبد في الإختفاء. ولكن قلقنا إستمر، فجسد الرئيس الجزائري لم يتخلص بعد من هزاله.. ودرجة حرارته تعاود تسجيل إرتفاع طفيف وكرات الدم البيضاء تتزايد هي الأخرى، وإن كان ذلك ليس تزايداً شديد الإرتفاع.

ولاحظنا تغيرات مرتبطة بإختلال جهاز المناعة في جسد الزعيم الجزائري، وظهر ذلك الإختلال بصورة واضحة على

مادة «الجلوبيولين..» الطرفية. وللأسف فإن هذا الفرع من علوم الطب الحديثة مايزال الكثير من جوانبه غامضاً وحتى الآن فإننا لا نملك معرفة إلاّ القليل عن أسرار تحول جهاز المناعة لدى الإنسان من صديق يدافع عن جسده إلى عدو غادر يؤدي بحياته».

لنتوقف قليلاً أمام ما قاله البروفيسور شازوف، فالواضح أن حالة بومدين آخذة في التدهور منذ أن بدأ علاجه في موسكو، وقد أرجع الأطباء ذلك إلى إختلال في جهاز المناعة، وهذا الإختلال هو الذي يرجّح اغتياله بالسم كما سنرى لاحقاً في الفصل القادم.

لكن لنتساءل لماذا يريد الأطباء السوفيات التأكيد على أن بومدين كان في حالة خطيرة حين وصل للعلاج، إلى درجة أن السلطات الجزائرية أبلغتهم حضوره دون إنتظار الرد؟

يبدو أنهم لحد الآن يحسون بالذنب تجاه بومدين حين عجزوا على إنقاذه - علماً بأن الأمر يتجاوزهم لأنه يتعلق بالقضاء والقدر، وإنتهاء الأجل - وأيضاً شعورهم بعقدة

نقص أمام الطب الغربي، مع أن الأطباء الغربيين حضروا للجزائر ولم يستطيعوا فعل على أي شيء.

إن هذا الإحساس نجده واضحاً فيما كتبه كبير أطباء الكرملين حول علاج بومدين، الذي يواصل حديثه موضحاً :

« .. وقد شارك في التوصل إلى تشخيص حالة بومدين وَوَضْع نظام العلاج لها أفضل الأطباء السوفيات، وجرت جميع المداولات والمشاورات في حضور الزملاء من الأطباء الجزائريين، كما كانت زوجة الرئيس الجزائري تتابع الموقف أولاً بأول حيث وصلت معه على الطائرة ذاتها... وأتذكر كذلك أننا لجأنا إلى طريقة حديثة للعلاج تدعى «بلازما فورسيس» كسلاح لمواجهة تراكم المواد الضارة في الدم بعد أن تجادلنا وتشاورنا بإستفاضة.

ولكن شبح رحيل بومدين في أية لحظة بسبب نزيف المخ، أو إحتشاء القلب أو تغيرات خطيرة تصيب الرئتين كان ماثلاً أمامنا بقوة.

ومن جانبي حذرت القيادة السوفياتية من وقوع هذا

الإحتمال.. وجاء رد الكسي كوسيغين رئيس الوزراء سريعاً:
«من الأفضل الإستمرار في العلاج بالجزائر، ويمكننا أن نبعث بأفضل الأطباء والعقاقير والأجهزة اللازمة إلى هناك، لأن رحيل بومدين وهو فوق أراضي الإتحاد السوفياتي من شأنه أن يحدث ردود فعل سلبية في الجزائر والعالم العربي.. وقد يضيف المزيد إلى أوضاع غاية في التعقيد بين موسكو والدول العربية...».

إلى هذه الدرجة يتخوف السوفيات من موت بومدين؟.. وكيف لا وهو في نظرهم يمثل زعامة عربية كبيرة، فالجوانب الإنسانية هنا لا معنى لها أمام العلاقات بين الدول، ولكن كيف لهم أن يقوموا بهذا؟، لأن مصارحتهم السلطات الجزائرية بالحالة الصحية لبومدين يعني أمراً واحداً هو أن بومدين ميئوس من شفائه..هالعمل إذن؟.. لقد كانت أيام صعبة بالنسبة لدولة صديقة خائفة من المستقبل أكثر من الحاضر، ومن لحظات الألم المستمرة جاء طلب بومدين، فأنقذ السوفيات من المأزق!

• ثانياً: السوفيات والخروج من المأزق

كانت القيادة السوفياتية في حيرة من أمرها، وتساءلت: كيف يمكن أن تطلب من بومدين العودة إلى بلاده لإتمام العلاج؟ ما هو مستقبل العلاقة بينها وبين الجزائر في المستقبل في حالة مرضه؟ ذلك لأنها - وحسب التقارير الطبية - باتت تخشى موته في أية لحظة.

ودائماً - وكما عودنا بومدين - رحمه الله - كان هو المنقذ، وتصرف وكأنه في كامل صحته، وقبل أن يبادر السوفيات إلى هذا الطلب سارع هو إليه، وقد سبق أن طلب عودته إلى الجزائر حين أحسّ أنّ مرضه سيستمر معه، وذلك أثناء رحلته إلى دمشق، فكيف لا يطلبه الآن، وهو يرى ويحس بحالته المتجهة نحو الأسوأ؟!.

لنعد ثانية إلى كبير أطباء الكرملين، لعل القارئ يظفر بالمزيد من الفهم والتأويل لمواقف بومدين، يقول شازوف:

« .. لحسن الحظ كانت وجهة نظر الرئيس بومدين نفسه مُطابقة لرأي الزعامة السوفياتية.. ولقد أدرك بومدين أن غيابه

عن وطنه وتزايد الأقاويل حول مرضه العضال داخل الجزائر، قد يؤدي إلى عواقب غير مأمونة... كما أن زوجته شجعت قراره بالعودة إلى الجزائر، واشترط بومدين علينا قبل العودة أن يصحبه فريق من الاخصائيين السوفيات، وأن يبقى الفريق في الجزائر لمواصلة العلاج وهو ما وافقنا عليه...».

والملاحظ أن هذه الفقرة تطرح في صياغتها العديد من الإستفهامات أهمها :

* لماذا شجعت زوجته «أنيسة» قرار العودة؟ هل باتت ومعها الدولة الجزائرية تشك في العلاج الروسي؟

* وإذا كان الأمر كذلك، هل نسيت «أنيسة» أن بومدين هو الذي فضل العلاج في الاتحاد السوفياتي؟

* هل أن بومدين حين طالب بالعودة أحس بقرب النهاية، ففضل أن يموت في بلاده؟

* هل اشتراط بومدين لمرافقة الأطباء الروس له وبقاءهم في الجزائر، يعني قناعته بقدرة الأطباء الروس؟

لا أعتقد أن هناك إجابات لـتلك الأسئلة، لكن الواضح أن الذين حـول بومـدين بما فـيهم زوجـته تريـد أن تجد مـجالاً لـلحـركـة فـي الجزائر، حـتـى تتـمـكن مـن إحـضـار كـبـار الإختصاصيين في العالم، وبالطبع هذا لم يكن ممكناً في الإتحاد السـوفيـاتي، مـن ناحيـة أخـرى فإن قـرار العـودة كان أفـضل لبومدين ولـلدولة الجزائرية مادامت كل المؤشـرات كانت تدل على أن حالـته الصحيـة في تدهور، وأحيانـاً تبدو ميئـوساً من شفائها حسب التقارير الطبية.

ويبدو أن الأطباء الروس كانوا علـى قناعة تامة بأنهم لن يستـطيعوا فـعل أى شيء من أجل بومـدين، ووقفوا عـاجزين أمام التحـكم في المرض، وتأكدوا أيضاً أن أي فـريق طبي آخر من أي دولة لـن يستطيع فعل أي شـيء... وأن بقاء بومـدين على قيد الحياة مسألة أيام فقط.

وكعـادة بومديـن في المقاومـة، فقـد قاوم المرض بـشدة، وحتـى في لحظات الألـم كان يتـخذ قـراراته الصائـبة، ومنـها العودة إلى الجـزائر، وبذلك أنقذ السـوفيات من اتخـاذ موقف

يحرجهم أمام المسئولين الجزائريين، وجعل الأطباء يحبونه، بل وتفاعلوا معه أثناء العلاج، لكنهم كانوا على علم بأنهم لن يستطيعوا علاجه، ولذلك حين غادر الاتحاد السوفياتي عائداً إلى الجزائر، كان لتلك اللحظات وقع في الأنفس هناك.

يقول شازوف : «... لن أنسى لحظات وداع بومدين لدى إقلاع طائرته من الإتحاد السوفياتي، كان لتلك اللحظات تأثير خاص في نفسي... كنت على إستعداد لعمل كل شيء، وأي شيء من أجل هذا الرجل الذي جمعتني به أواصر صداقة وتعاطف مع آلامه، نمت بقوة أثناء العلاج، إلا أنني في الوقت نفسه كنت على وعي بعجز الطب أمام حالته الخطيرة، وكان بومدين كذلك متعكر المزاج في تلك اللحظات، لحظات وداعه للإتحاد السوفياتي...».

وحين عاد بومدين إلى الجزائر كان في صحبته مجموعة من كبار أساتذة الطب السوفيات غير أنه حسب شازوف، وصلت من سفارة الاتحاد السوفياتي بالجزائر إلى موسكو أنباء مقلقة على الروح العدائية التي تحيط بالأطباء السوفيات، والتي

قد تصل إلى حد تهديد حياتهم..» وازداد الوضع حرجاً مع ظهور أعراض إختلال الدورة الدموية في المخ، التي بدأت عقب عودة بومدين إلى الجزائر[3].

وكان على الجزائر أن تتحرك لإنقاذ الرئيس، وأن لا تربط مصيرها بالفريق الطبي السوفياتي، ولم يعد يهمها مشاعر الروس، فالأمر يتعلق بحياة بومدين، واستدعت الأطباء من كل مكان.. ودخل الطب الغربي في تنافس واضح مع الطب السوفياتي، وكانت النتيجة موت بومدين.

• ثالثاً : أطباء من كل حدب وصوب :

بعد عودة بومدين من الإتحاد السوفياتي رفقة الفريق الطبي، قامت الجزائر بدعوة عدد كبير من أخصائي دول عديدة، إن حضر أطباء من فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وكوبا.

وبقدوم هؤلاء الأطباء أصبح الموقف صعباً ومحرجاً بالنسبة للأطباء السوفيات بعد أن حاول ممثلو الطب الغربي

خصوصاً الفرنسيين أن يُسَفِّهُوا التشخيص الذي توصل إليه الأطباء السوفيات.

وقد كان للأطباء الأمريكيين حضوراً واسعاً، فقد وصل يوم 21 نوفمبر خمسة أطباء عسكريين أمريكيين تابعين للحلف الأطلسي، ويقيمون في ألمانيا الغربية إلى الجزائر ومعهم أجهزة إنعاش جديدة.

وفي اليوم التالي حمل أربعة اختصاصين من مستشفى ماسومتوميتش في بوسطن أجهزة أخرى للإنعاش معهم إلى الجزائر.

وتبع هؤلاء بعد ذلك عشرة إختصاصين أمريكين آخرين.

وبعد أيام لحق بهؤلاء بعد أيام قليلة إختصاصيان شهيران من تونس وآخر من لبنان.

ثم لحق بهم أربعة أطباء إنعاش بريطانيين، وأربعة إختصاصيين يوغسلاف، وسويديان وخمسة يابانيين وألمانيان، وثمانية إختصاصيين صينيين.

وكتنافس واضح بين الدول الغربية أرسلت ألمانيا الغربية جهاز كاميرا تشتغل بأشعة «غاما» فضلاً عن جهاز سِكنير لتصوير المخ.

وذهبت الولايات المتحدة الأمريكية إلى أبعد حد، عندما أرسلت طائرة شحن عسكرية عملاقة تحمل مختبراً نقالاً مزوّد بجهاز «سكنير» للمخ شديد التطور.

وهكذا جُمِعَ حول بومدين حشداً من الطاقات العلمية النادرة والأجهزة الحديثة، وبدا التنافس بين الجميع واضحاً، خصوصاً بين الأطباء السوفيات من جهة، والفرنسيين من جهة ثانية.

وقد ذهب الدكتور الروسي الشهير «سورا» - الذي كان ضمن الفريق الطبي الروسي - إلى القول: «كانت المناقشات في الكونصلتو حامية الوطيس، لكن أحداً من الأطباء لم يقترح أية إضافة جدية لنظام العلاج الذي كنا قد وضعناه في موسكو..»

غير أن إجماع الأطباء المشاركين في «الكونصلتو» -

الفحص الشامل - على تأييد طبيعة المرض الذي توصل إليه الأطباء السوفيات ونظام العلاج المتبع، لم يلغ أجواء التوتر بينهم وبين الأطباء الغربيين، بل إنها ازدادت تعقيداً إلى درجة أن شازوف يفجني طلب من يوري أندريوف - وكان رئيس المخابرات السوفيات الأ.كي.جي.بي... آنذاك - تأمين سلامة الأطباء السوفيات خاصة في حالة وفاة بومدين..

ورغم وجود ذاك الكم الهائل من الأطباء، إلا أن الأطباء السوفيات أكدوا في كتاباتهم على أنهم ظلوا - هم وحدهم - إلى جوار فراش مرض الرئيس بومدين، حتى الدقائق الأخيرة من حياته، حين وقع نزيف متكرر أصاب المخ، وآخر دموي في الرئتين، وكان حسب الأطباء السوفيات هو السبب المباشر لوفاته.. وبذلك خسر الطب معركته أمام المرض، وسيظل يخسرها إلى الأبد.

من ناحية أخرى فإن ذاك العدد الهائل من الأطباء كان ضمنه رجل متقدم في السن مثل دولة السويد في ذلك الحشد هو الطبيب الشهير «والدنستروم» الذي سمي المرض بإسمه في

حالات سابقة وقعت لزعماء آخرين، ولم يكن معه إلا مرافق واحد، ولخبرته السابقة إستطاع إكتشاف المرض، والنتيجة كانت معروفة مسبقاً حين يدخل المريض مرحلته الأخيرة، وكان بومدين قد دخلها بالفعل.

لقد وضع تفسير الطبيب السويدي حداً لجميع التفسيرات والتأويلات التي تضاربت بين الفرق الطبية، فكيف تم له ذلك؟!.

• رابعاً: «والدنستروم».. وبلاغ الموت

يقول الأطباء الفرنسيون أن التشخيص الذي توصل إليه الطبيب السويدي "والدنستروم" هو نفس التشخيص الذي توصلوا إليه، غير أن الطبيب السويدي استطاع في ساعات قليلة بعد أن قرأ حصيلة التقارير وشاهد الصور وفحص المريض بيديه أن يشخص المرض.

وبتوجيه منه تقرر تقليص ساعات غسل الكلي يومياً إلى

بضع ساعات فقط، وظهر كأن أيام العلاج في موسكو لم تنفع الرئيس بومدين في شيء.

وفي 23 نوفمبر بدا أن بومدين خرج من حالة الغيبوبة، لكنه بعد خمسة أيام غاب عن الوعي ثانية، فقرر البروفيسور السويدي أن بومدين قد دخل في المرحلة الأخيرة من مرض «والدنستروم» الذي كان يحمل إسمه، وأن الموت قادم لا محالة رغم أن المريض يمكنه أن يعيش بعض الوقت إذا نجح في تجاوز الأزمة الجديدة، ورأى أنه لا جدوى من إجراء عمليةجراحية لتفتيت الإنسداد الذي ضرب أحد أوردة الدماغ. لأن هذه العملية ستؤدي إلى الوفاة.

وفي أول ديسمبر 1978 أظهر الفحص بجهاز «سكنير» وجود حالة تخثر ثانية في دم المخ، ودخل بومدين في حالة غيبوبة عميقة بينما كان 62 إختصاصياً من أنحاء العالم يراقبون جسمه المرتخي، وقلبه الذي كان لا يزال يعمل، بينما لم تكن الأعضاء تعمل إلا بواسطة الأجهزة الحديثة المستخدمة، وبدأت كهرباء المخ تضعف. وواصل الأطباء عملهم رغم

قناعتهم بعدم جدوى ما يفعلون.

وفي 18 ديسمبر تفاقمت حالة بومدين على إثر نزيف داخلي مفاجيء، وبعد ستة أيام اختفت كل مظاهر الحياة عن الرئيس بومدين، بما في ذلك حركة كهرباء المخ، التي أخذت شكل خط مستقيم متواصل في الرسم البياني للجهاز الذي يقيس تلك الحركة.

وبدت الحكومة الجزائرية - آنذاك - أنها تريد مواصلة معركة إنقاذ الرئيس بأي ثمن، وظهر إصرارها الواضح طبياً وسياسياً من أجل علاج بومدين، والدليل على ذلك هو إستحضار جيش من الإختصاصيين وترسانة من المعدات الطبية.

وحسب المصادر الطبية - الغربية على وجه الخصوص - أن بومدين لم يستعد وعيه منذ أول ديسمبر وبقي على تلك الحالة 27 يوماً، لم يكن جسمه يعمل فيها إلا بفضل الأجهزة المتطورة فيما كانت البيانات الصادرة عن السلطات الرسمية تقول أن حالة الرئيس «مستقرة..».

ويرى الكتاب الغربيون «أن الجزائر لم تأت بسابقة على صعيد إطالة فترة حياة الرئيس بومدين، فإسبانيا فعلت نفس الشيء مع الجنرال فرانكو وإحتضاره الطويل سنة 1975، ويوغسلافيا أبقت المارشال تيتو في حالة الإنعاش لأسابيع عديدة، واستخدم السوفيات نفس الأسلوب مع أندرويوف وشيونينكو...»(4).

والواضح أن السلطات الجزائرية كانت على قناعة تامة بأن بومدين لا أمل في شفائه وبدأ التحضير لفترة ما بعد بومدين، ووقع نقاش بعد التأكد من وفاته فجماعة تطالب بدفنه في مسقط رأسه بقرية هليوبوليس بولاية "قالمه"، على إعتبار أن العاصمة لا تستطيع تحمل عدد الزائرين، ناهيك عن الظروف الأمنية، أما الفريق الثاني، فقد اتخذ موقفاً شجاعاً. إذ أصر على دفنه في العاصمة، وبالذات في مقبرة العاليه، وتحمل مقابل ذلك توفير الأمن والحماية(5).

وإذا كان الأطباء قد استطاعوا تحديد مرض بومدين في أيامه الأخيرة، بعد تشخيص الطبيب السويدي له، فإن هناك

حقائق مازال طي الكتمان، من ذلك هل مرض بومدين كان طبيعياً كالذي أصاب عدة زعماء في العالم، أم مرضه نتيجة للسم؟، وبالتالي فإن هناك محاولة جادة لتصفيته، وهذا يعني - كما ذكرنا في الفصل الأول - أنه أغتيل، وأن المرض كان مجرد مظهر لسم نفذ في الجسم، وعجز الطب عن معرفته لأسباب كثيرة.

والحقيقة أن الذى يتابع تصريحات الأطباء السوفيات منذ البداية، يدرك جيداً أن المرض ورغم ظهوره المبكر قبل ذلك، ما هو إلا مظهر خارجي، لسم استعمل لم يتم كشفه إلى الآن رغم الاتهامات المتبادلة، فكيف ذلك؟

• خامساً : الأطباء السوفيات : بومدين تعرض لمواد سامة

لم تكن أقوال الأطباء السوفيات عند تشخيصهم لمرض بومدين، تتطلب الوقوف أمام كل كلمة قيلت أنذاك، فالجزائر لم يكن يهمها إلا كيفية إنقاذ بومدين من المرض، ولهذا لم

يهتم الجزائريون بما فيهم السلطة بتحليل العبارات وقراءتها القراءة الصحيحة، وهي في ذلك - أي السلطة - معذرة لسببين :

الأول : أن شغلها الشاغل هو الإسراع في علاج بومدين، بغض النظر عن التحليلات الطبية، وكان السباق على أشده بين المرض، وبين الإرادة السياسية.

الثاني : أن تشخيص الأطباء السوفيات، أكد على أن بومدين يعاني من مرض شديد ذات طبيعة «فيروسية»، ولم تكن كلمة فيروسية أنذاك تثير إهتمام أي كان، لأن جل الأمراض على هذا النحو، خصوصاً وأن «الفيروس» لم يحدد في البداية.

كان هذا منذ ثمانية عشرة سنة خلت، وهي مدة زمنية كافية لظهور الجديد في موضوع مرض بومدين، وهو ما حدث بالفعل.

لنعد مرة أخرى إلى كبير أطباء الكرملين شازوف يفجيني، لنواصل معه تحليلاته السابقة حول مرض بومدين.

يقول شازوف : «.. وعلى ضوء تشخيص حالة بومدين لا نستبعد أن تكون التغيرات التي طرأت على جهاز المناعة نتيجة تعرض الرئيس الجزائري لعوامل خارجية، وقد تكون تلك العوامل ذات طبيعة جرثومية أو بسبب التسمم «بمواد سمية» معينة وما حدث مع بومدين يكشف خطورة إخلال جهاز المناعة في الإنسان، فالأمر لا يقتصر على ضعف وإنهيار وظائف الدفاع عن الجسم، بل يمتد إلى ظهور التهابات شاملة وعامة بالأوعية الدموية... وهذا بدوره يؤدى إلى ظهور جلطات صغيرة، وأكثر من نزيف في الأوعية الدموية، وهذا هو ما حدث للرئيس الجزائري وأكتفي بذلك،.. فالخوض في مزيد من التفاصيل العلمية بشأن هذا المرض مسألة يصعب على الأطباء أنفسهم متابعتها، فما بالك بالقارئ غير المتخصص

وعلى أية حال فإن جوانب الخلاف في تشخيص حالة الرئيس بومدين قد نشرناها في دوريات طبية متخصصة...»[6].

إذن فالأطباء السوفيات يرجحون أن سبب المرض هو الإصابة بمواد سمية، لكنهم لم يستطيعوا تحديدها، ولم يتم ذكرها في أي تشخيص آخر بل أن أطباء الغرب أجمعوا على أنه مرض «والدنتسروم»، وهذا يعني أن نشخيص الطب الروسي، غير تشخيص الطب الغربي، وكأن كلاهما يخفي حقائق بعينها، وبما أن مرض «والدنستروم» ظاهر، فالمرجح أن يكون بومدين قد تعرض بالفعل إلى السم، لكن السؤال ما نوعه، ومن وضعه؟ وفي أي مكان؟ ومن هي الأطراف المستفادة منه؟

ويبدو شازوف في كتابه «الصحة والسلطة» أكثر وضوحاً من أقواله السابقة فقد أعلن بشكل مباشر أن بومدين أغتيل وفي هذا مصلحة لقوى أو لدول بعينها وذلك في قوله التالى :

«... انتابني لحظة وفاة بومدين، ولايزال إلى الحين، إحساس دقيق بأن أسباباً تم إخفاؤها عن أعيننا كأطباء هي التي تكمن وراء موت بومدين... وها أنا أترك للقاريء أن

يفهم بنفسه ما بين السطور...».

لقد فهمت أن بومدين مرض بسبب السم، وبهذا يعتبر أغتيل، ومن حق القراء أن يفهموا غير ذلك، لكنني مضطر وحسب قراءاتي إلى السير على هذه النتيجة، التي توصل إليها الطب، لكن لن أكتفي بهذا سأواصل الجانب السياسي للاغتيال.

فمن المستفيد يا ترى أهي المغرب كما يرى البعض؟٢٤ أم الموساد كما يرى البعض الآخر؟، وهل المتهم بالاغتيال هو الرئيس صدام حسين؟ أم القوى الامبريالية أنذاك؟ أم قوى الداخل؟. كل هذه الأطراف سنتابع علاقتها بالاغتيال في الفصل القادم.

* * *

هوامش الفصل الثانى

=============

(1) ليست مجلة روزاليوسف، المجلة العربية الوحيدة التي أشارت إلى موضوع مرض بومدين وخلفياته، لكنها الوحيدة التي أكدت في عددها الصادر بتاريخ 1992/3/30 أنه مات مقتولاً، وعادت للإشارة أنه مات بالسم في نهاية 1995.

(2) نقلاً عن جريدة الأنباء - الكويتية - عدد 1992/11/25 ، إذ نشر العرض تحت عنوان شازوف كبير أطباء الكرملين يفضح أسرار السياسيين والقادة في كتابه الصحة والسلطة، ترجمة د. «د.إيمان يحي».

(3) لم تذكر أية مصادر أخرى أو كتابات جزائرية أو غربية أن الأطباء الروس تعرضوا لما يهدد حياتهم في الجزائر، وقد يكون الأمر كله يتعلق بجوانب أمنية، لم يتم الكشف عنها بعد، أما بالنسبة للشارع فقد يكون هناك تذمر من السوفيات بشكل عام، لكن الفريق الطبي الذي كان يعالج الرئيس لم يختلط بالرأي العام، ولذلك فإن شهادات شازوف قد تكون معلوماتها ناقصة أو غير صادقة أو

موجهة سياسياً فيما يخص هذه النقطة بالذات، ذلك لأن تهديد فريق طبي أجنبي قادم لمعالجة الرئيس يعني منتهى الفوضى في البلاد، وهذا في الظاهر لم يحدث إطلاقاً، وينتظر من مسئولي تلك المرحلة تفاصيل أكثر في الموضوع.

(4) نقلاً عن كتاب "هؤلاء المرضى الذين يحكموننا"، مرجع سابق.

(5) الفريق الذي كان يتزعمه مدير المخابرات أنذاك "قاصدي مرباح"، وقد صرح بموقفه ذاك أكثر من مرة قبل اغتياله.

(6) لم نتمكن من الإطلاع على الدوريات الطبية التي نشر فيها البروفيسور شازوف معلوماته حول مرض بومدين، ويرجّح أن تكون دوريات روسية، ولهذا وجب التنبيه.

* * *

الفصل الثالث

« الأخطبوط .. واغتيال بومدين »

- أولاً : الموساد.. وخطة إغتيال بومدين.
- ثانياً : الغرب... مرض الأعداء.. مرض العظماء.
- ثالثاً : القنبلة الإسلامية.. والزعماء الثلاث.
- رابعاً : الحسن الثاني.. الرسالة والسم.
- خامساً : طلاس يتهم صدام باغتيال بومدين.
- سادساً : الإغتيال .. وصمت المقربين.

لا يمكن الجزم بأن بومدين مات بالسم، كما أنه لا يمكن نفي ذلك، ونحن في هذا الفصل سنحاول مواصلة تتبع الأحداث، فإذا كنا في الفصول السابقة قد تحدثنا وبالتفصيل عن مرضه وعن تحليل الأطباء، وجئنا للأمانة بكل ما استطعنا الوصول إليه من معلومات، فإننا في هذا الفصل سنتبع نفس الخطوات فيما يتعلق بالتفسير القائل بأنه مات مسموماً.

والقول بأن بومدين كان مريضاً فقط دون تعرضه لأية عوامل خارجية، طرح لا يقبل في الوقت الحالي وذلك لعدة عوامل منها :

أولاً : أن الأطباء السوفيات. يقولون أنه تعرض لمواد سامة لم يستطيعوا تحديدها.

ثانياً : التشخيصات المختلفة، ومحاولة العلاج المبذولة، والجمع الكبير من الأطباء كلها عوامل لم تستطع إنقاذه، وهذا يعني المرض لم يعرف، وأعطيت تفسيرات مختلفة، مما قد يجعلنا نذهب إلى القول : أن المرض كان نتيجة تناوله السم الذي دس له من أطراف مجهولة.

ثالثا : هناك إتهام واضح بالاغتيال بالسم لطرف محدد هو صدام حسين، وبالمساهمة في الاغتيال من جهات أخرى، بل وضع خطة للاغتيال من طرف ثالث.

رابعاً : عودة الإعلام العربي إلى فتح ملف بومدين. كلما حانت الفرصة، والتأكيد على اغتياله بالسم، وقد يكون ذلك للإثارة الإعلامية، وقد يكون لغير ذلك.

وإذا كان الحديث سيدور حول الاغتيال، فعلينا بداية تحديد هذه الأطراف، وتبدو للوهلة الأولى، وحسب تصريحات إعلامية - أحياناً كثيرة - لا ترقى إلى مستوى الدقة، وتهدف في أحايين أخرى إلى إثارة البلبلة، وخلق عداوات بين الشعوب، قلنا تبدو في أربع هي : «الموساد، الغرب خصوصاً فرنسا، ملك المغرب الحسن الثاني، الرئيس العراقي صدام حسين»، ويمكن لنا إضافة طرف خامس يشكل تخميني من الداخل، وقد يكون من المقربين، ولكل طرف من الأطراف السابقة، فائدة في اغتياله، لتضاربه مع مصالحه، ومصالح الجزائر.

فبالنسبة للكيان الإسرائيلي، فإن مشكلته الأساسية مع جزائر بومدين هي تدعيم الجزائر الدائم إلى القضية الفلسطينية، والدعوة دائماً إلى محاربة إسرائيل إذ كانت الجزائر تقود الطرف المتشدد الذي يؤمن بالحرب فقط.

أما بالنسبة للغرب، فإن دعوة الجزائر إلى تشكيل نظام عالمي جديد يراعى فيه العلاقات والمصالح المشتركة بين الشمال والجنوب، ناهيك عن وقوف بومدين ضد التواجد الأمريكي في المنطقة العربية، ويعد سبباً كافياً لاغتياله.

أما إتهام ملك المغرب «الحسن الثاني» فذالك، لأن الجزائر بقيادة بومدين، كانت مع مبدأ تقرير المصير بالنسبة لأهالي الصحراء الغربية، وهو ما كان يزعج المغرب لأن ذلك يتضارب مع مصالحه.

ويبقى المتهم الرابع هو الرئيس العراقي «صدام حسين» الذي إختلف معه حول المصالحة بين العراق وسوريا، وحول أطروحات دول الصمود والتصدي، وإتهام «صدام حسين»، ذكر مؤخراً فقط منذ سنة على لسان وزير الدفاع السوري

العماد الأول مصطفى طلاس.

هذا بالنسبة للإتهام الموجّـه للخارج، وهناك في إعتقادي إحتمال لطرف جزائري داخلي له الفائدة في إزاحة بومدين من السـلطـة، هذا الطـرف لم يكتـشف إلى الآن، وكـلمـا زادت الإتهامـات إلى الخارج، كلـما أحسّ هو بالـطمأنينـة الظاهرة، لكن في أعماقه وفي ليله يـطارده شبح بومدين، وعلى كل هذا يبقى مجرد إفتراض لكنه لا يخلو من الواقعية.

وبغـض النظـر عن المصـالح الـتي حـقـقتـهـا الأطراف السـابقة، فإنـه لاتوجد لديـنا وثائق تدين أي طـرف، وإنما هي مجرد تحليلات وتصريحات، تـلك التصريحات التي ترقى إلى مستوى الاتهـامات، وأحـياناً إسـتنتـاج، لكن من الصـعب أن نعتبرها حقائق.

وبما أننـا لا نملك غيـرها فعلـينا أن نقـبل بها فـي الوقت الراهن - وبتحفظ - حتى يأتي يوم، وتظهر فيه الحقائق كاملة، أو نعلمها عند الله سبحانه في اليوم الآخر.

وفي انتظار تحقق ذلك اليوم علينا أن نبحث عن خلفيات

الاغتيال، لأن العملية لم يكن يقصد بها بومدين، وإنما كان يقصد بها توجه سياسي خاص بالجزائر بدأ يتشكل، ويعطي تحذيرات للغرب من المستقبل.

والواضح أن إتهام أي طرف لم يكن من طرفي، ولا من طرف أي جزائري آخر - ولو مسئولاً - وإنما كل الإتهامات جاءت من أطراف خارجية، لا أعتقد أن لها مصلحة في الإهتمام باغتيال بومدين، ولكن بالتأكيد لها مصلحة في إتهام أشخاص بعينهم.

وبعيداً عن كل هذا فإن بومدين، منذ أن ظهر على الساحة فرض وجوده، وفرضه أيضاً في أيام المرض، ولم يغب عن ذاكرة الأمة منذ وفاته - أي منذ 18 سنة رغم المحاولات المتعددة لطمس دوره وإنجازاته.

وبعد هذا من أين نبدأ يا ترى؟ أمن الموساد أم من الغرب أم من الملك الحسن أم من الرئيس صدام حسين أم من غيرهم؟ وكيف لنا أن نرتب، وقد تواجَد هؤلاء كلهم في فترة واحدة؟ وما هي العلاقة بين هذه الأطراف التي قامت

بالتصفية؟

هذه الأسئلة جميعها يتعذر الإجابة عليها، ولابد من الترتيب، وليس شرط أن نصل إلى العلاقة بينهم! ولكن المهم أن نبين هدف كل متهم في الاغتيال، وأعتقد أننا وضحنا جزءاً في السابق، وسنتابع تحليلنا للموضوع.

• أولاً: الموساد .. وخطة اغتيال بومدين.

كان بومدين العدو اللدود في نظر إسرائيل، لأنه عطل بشكل أو بآخر المشاريع الإسرائيلية في المنطقة، وكان عليها أن تقضي عليه بواسطة «الموساد»، ذلك الجهاز الذي قتل الكثير من القيادات الفلسطينية.

والحقيقة أن بومدين كان يعي ذلك جيداً، رغم الدعم الذي كانت تلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة، إلا أنه استمر في المراجعة، التي كلفته حسب البعض حياته.

وقد اشتد العداء الإسرائيلى لبومدين خلال حرب

١٩٧٣، وما بعدها، ذلك لأنه ساهم بشكل مباشر في تلك الحرب. ووقف بكل حزم أمام التحالف الأمريكي-الإسرائيلي. الذي كان يسعى لترتيب أوضاع المشرق العربي.

وعندما بدأت المفاوضات بين مصر وإسرائيل، ونتج عن ذلك إتفاقية كامب دفيد كان بومدين عكس كثير من القادة، إذ لم ير فيما قام به السادات خروجاً عن الصف العربي، وتحقيق مصالح مصر على حساب القضية الفلسطينية. وإنما نظر للأمر بما هو أخطر، وتوصل إلى أن ما جرى هو عملية سحب واضحة لمصر من الإحتياط العربي في مواجهة إسرائيل.

إذن فنظرته لم تكن تهدد مصالح إسرائيل أنذاك فقط، وإنما تهددها في المستقبل أيضاً، ولذلك صدرت الأوامر بإنهاء حياته وليس دوره فقط.

والمعروف أن مرض بومدين قد تزامن أنذاك في نهاية حرب المخابرات التي شهدتها سنوات السبعينات، حيث ظهر الغرب فيها مفزوعا وبشكل دائم. ذلك لأن ما عرف بمعارك

الجواسيس كانت تهز العالم، إذ لم يكن يمر أسبوع إلا ويسمع العالم عن عمليات إرهابية : تفجيرات أو اغتيالات، أو خطف طائرات، وكان من ما بين المتهمين بتمويلهم الرئيس هواري بومدين.

وبالرغم من أسماء كثيرة ظهرت في النشاط الإرهابي، على مستوى فردي، مثل «كارلوس» و«محمد بوديه» الجزائر، الذي وصفته الموساد بأنه سيد الإرهاب في العالم، وعلي مستوى جماعي مثل ألوية الجيش الأحمر السري، وفصائل الثورة الفلسطينية بقيادة الدكتور وديع حداد الذي مات مقتولاً بالسم، واتهم باغتياله الرئيس العراقي صدام حسين، قلنا رغم هذه الأسماء، وقد كانت على علاقة بالجزائر حسب بعض المصادر، إلا أن أية دولة لم تتجرأ على اتهام الجزائر، أو رئيسها بومدين، وعدم إعلان التهم أو التبليغ بها، لا يعني غيابها عن ذهنية أجهزة المخابرات الغربية والإسرائيلية. وإنما ذلك يعود لعدة أسباب، أهمها :

- أن تلك الأجهزة لم تكن تملك أدلة قاطعة تدين

الجزائر أو بومدين، وإنما مجرد تخمين. وهذا يعني أن الجزائر لم تشارك في تلك العمليات، أو يعني أن الجزائر بإستطاعتها القيام بأعمال دون أن تترك آثاراً، وهذا يعيب الأجهزة الغربية.

- لم يكن في وسع أية دولة مهما كانت قوتها أن تواجه الجزائر بالحقائق، فما بالك عن توجيه إتهامات لدولة كانت مؤثرة في المنطقة كلها.

- في ذلك الوقت كانت الأعمال التي تقوم بها مختلف جماعات العنف الرافضة للغرب لا تعد إرهاباً، ولكن نضالاً ضد سيطرة الغرب، ناهيك عن أن منظمات ثورية كثيرة ولدت في رحم الغرب، وقد عدت في ذلك الوقت ناقوس خطر لما سيواجه الغرب في المستقبل، ومعظم المنظمات الثورية آنذاك لم تكن جماعات مرتزقة ممولة من الجزائر أو غيرها، ولكنها جماعات تحمل قناعات وأفكار، ومبادئ ثورية تدافع عنها.

- وفي ذلك الوقت أيضاً كان العالم يعيش مرحلة حرب باردة بين قطبين، وليس كما هو الآن يقاد من طرف واحد، ولذلك أن الذي يعتبر إرهاباً عند الغرب، لم يكن

كذلك عند الشرق، ناهيك عن خوف الغرب أنه في حالة إتهام أية دولة تتضاعف العمليات أكثر.

- كانت عمليات العنف تقابل بعمليات أخرى، وفي تلك الفترة نشطت جل أجهزة الإستخبارات في العالم، ولهذا نجد أن الموساد كانت أكثر الأجهزة مواجهة مع المخابرات العربية، المصرية داخل إسرائيل، والجزائرية خارجها، خصوصاً في أوروبا، وبما أنها ترى أن بومدين هو العدو الأول، فإنها اعتبرت كل المنظمات المعادية لها تلقى تدعيما من الجزائر.

وفي أواخر عام 1977 - حسب ما ذكرته الكاتبة الصحفية فايزة سعد - «وصل إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تقرير سري للغاية يؤكد أن هناك مخططاً محكماً يتم الآن بين جهات عربية ودولية مختلفة لاغتيال بومدين... وكانت أهم معلومات التقرير تلك التى تؤكد أن الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان[1] على علم بهذا المخطط...

ووصل التقرير الخطير إلى بومدين، فلم يهتم به، إذ اتضح أن تقارير أخرى قد سبقت معلومات المنظمة إلى

بومدين، وإن اختلفت الطريقة، فمرة تقول المصادر أن الاغتيال سيتم بالسم ومرة بالأشعة ومرة ثالثة بغازات الأعصاب[2].

قبل هذا بعامين، كان بومدين قد أُبلِغَ من المخابرات السوفياتية بمعلومة من سطر واحد تقول : أن المخابرات الأمريكية والإسرائيلية تعد خطة لاغتيال الرئيس بومدين[3].

والمعلومة كما نلاحظ، ليست فيها أية تفاصيل، لذلك كان لابد من التأكد منها، وبالفعل أمر بومدين أحد رجال الأمن المشهورين في الجزائر بالتحقيق في الموضوع... وسافر الرجل تحت إسم مستعار إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستطلع دوائر القرار القريبة من المخابرات المركزية الأمريكية.. وتأكد الخبر.

لكن هل يكفي العداء الصهيوني تجاه بومدين ليكون سبباً أو مبرر لاغتياله؟

بالتأكيد أن العداء ليس العامل الوحيد، ولكن للاغتيال هدف آخر، إنه بإختصار التخلص من دور الجزائر في دول العالم الثالث، فقد تلاقت الرغبة الإسرائيلية مع المصلحة

الأمريكية فالأولى أي الرغبة الإسرائيلية سببها الدعم غير المحدود من طرف الجزائر إلى فلسطين الثورة، أما الولايات المتحدة، فقد اعتبرت ما تقوم به الجزائر يهدد مصالحها، ويعرقل مخططاتها بالمنطقة.

والواضح أن هناك تداخلاً أنذاك بين سياسة الدولة الأمريكية. والقضايا الشخصية لوزيرها للخارجية في ذلك الوقت «هنري كيسنجر»، إذا اعتبر ما يحدث في الجزائر وقوفاً أمام سياسته الشخصية، وأفكاره الخاصة، وقد نقل عنه تعقيباً على تصرفات بومدين قوله : «سنعرف كيف نعاقب هؤلاء»، ومع ذلك ما يزال البعض يتساءل عن مصلحة الخارج في إستمرار العنف والاغتيالات في الجزائر.

والمعروف أن كيسنجر كان يحلم بعملية إعادة ترتيب شاملة في المنطقة، هدفه الأول في ذلك تطبيع العلاقات الإسرائيلية وتحويل القضية الفلسطينية إلى قضية لاجئين يتم إدماجهم على مراحل في كل من الأردن والضفة الغربية.. وتقديم مساعدات لهم توفرها الدول العربية النفطية، ثم يجد

العرب أنفسهم أمام حتمية التفاوض مع إسرائيل.

ويرى بعض المحللين أن ملامح تلك الخطة ظهرت قبل ذلك بفترة، وحاول بعض القادة العرب أن يتفقوا عليها في قمة الرباط عام ١٩٧٤، لكنها لم تتم لأنهم واجهوا موقفاً متشدداً من الرئيس هواري بومدين، إذ قبل إنعقاد مؤتمر القمة بأيام إتصل الملك الحسن الثاني بالرئيس الجزائري، وطلب منه أن يكون مرناً وقال له: «إن القضية أمانة في عنقك»(4).

وفي ذلك المؤتمر تبادل الجميع الرأي، إلى أن جاء رد بومدين الذي ركز كلامه حول ثلاث نقاط تمثلت في:

- لا وصاية على القضية الفلسطينية.
- لا تفاوض ولا تطبيع مع الكيان الإسرائيلى.
- لا تعامل مع العدو.

وبعدها دعا إلى ضرورة دفع التحدي ومقاومة الإستعمار والإمبريالية.

وكانت كلمته بمثابة القول الفصل، لذلك لم يعلق أحد

من الملوك والرؤساء ووصلت الكلمة إلى الملك فيصل - الذي كان يجلس إلى جانبه - فتحدث قائلاً :

«أنا موافق على كلام الأخ بومدين... والسلام عليكم ورحمة الله...»

وبذلك إنتهت القمة بموقف عربي موحد، قريب إلى حد كبير من أفكار الجزائر، لهذا كله أخذت إسرائيل موقفاً عدائياً تجاه الجزائ وقائدها بومدين، ناهيك عن الموقف العدائي التقليدي، وغير مستبعد على إن إستعمال السم لبومدين تم من طرف عملاء «الموساد» على إعتبار أن العدو الإسرائيلى هو المستفيد الأول من تصفيته، وبالتالي إبعاد الجزائر عن أداء دورها العربي.

إلا أن توجيه التهمة لإسرائيل، لا يعني براءة الأطراف الأخرى المتهمة من ذلك مثلاً الدول الغربية خصوصاً فرنسا والولايات المتحدة، ذلك لأن مصالحها صارت مهددة من المواقف العربية بدءاً من حرب أكتوبر 1973، فمن أين تبدأ التهمة أو إلى أين تنتهى؟

• ثانياً : الغرب : مرض الأعداء.. مرض العظماء

ليست هناك إشارة - ولو من بعيد - في الكتابات الغربية توحي أن بومدين تعرض للسم - بطئ المفعول -، وكما اتضح في السابق «أن التحليلات والفحوص السوفياتية أكدت ذلك، فهل يا ترى إختلفت الفحوصات الغربية عن الروسية؟». الإجابة واضحة في كتابات بعض الفرنسيين الذين أكدوا على أن بومدين مصاب بمرض «والدنستروم»، وهذا يعني أنه لم يتعرض لأي سم أو أية فيروسات جرثومية - موجهة.

ويتعذر في القت الراهن القبول بذلك القول العلمي. أو النتيجة المخبرية، أولاً لأن الأطباء السوفيات أكدوا على وجود فيروس نتيجة للسم. وثانياً : قولهم أن كثيراً من الحقائق قد خفيت عنا كأطباء فيما يخص مرض بومدين. وثالثاً : وهو الأهم «أن التنافس كان على أشده بين مدارس الطب الغربي والمدرسة السوفياتية».

من ناحية أخرى فإن الظروف السياسية آنذاك تدل على

سعي الغرب الواضح لإزاحة بومدين، فمثلاً فرنسا كانت تتابع بحذر تنامي دور الجزائر، خصوصاً الرئيس ديستان الذي كان يرى الخطر في كون الجزائر أصبحت دولة مهابة الجانب، ولينقضي على عقدة فرنسا تجاه الجزائر، بدأ الهجوم كمحاولة لتحويط وعرقلة دور الجزائر في المنطقة العربية.

لقد كان البترول في ذلك الوقت أقوى ورقة في يد العرب، وأثبت فعاليتها منذ حرب أكتوبر 1973، لهذا دعا جيسكارديستان إلى عقد مؤتمر دولي للطاقة، لكن الجزائر عارضت الفكرة، واقترح بومدين أن يكون الموضوع بنداً في مناقشات ندوة تعقدها الأمم المتحدة تشمل النظام الإقتصادي العالمي.

ولم تكن كلمة النظام الاقتصادي العالمي قد وُجدَت بعد.. وكان معنى الكلمة أن دول العالم الثالث - ممثلة في الجزائر - قد بدأت التمرد على الدول الكبرى. ولذلك حاولت أمريكا أن تحتويه من خلال اللقاء الذي تم بين الرئيس بومدين، والرئيس الأمريكي نيكسون - بطلب من هذا الأخير - في

الأمم المتحدة.

وفي ذاك اللقاء طلب الرئيس الأمريكي من بومدين أن يساهم في تخفيف تصاعد الحقد ضد أمريكا في كل من أفريقيا وآسيا.

فماذا كان جواب بومدين؟ هل استجاب للطلب؟

لقد أطرق بومدين لحظة ثم قال لنيكسون : كيف يمكنني ذلك وأنتم تحضون شاه إيران على إحتلال الأراضي العربية في الخليج، وتشجعون إسرائيل على ضم المزيد من الأراضي المحتلة في فلسطين!

ورد نيكسون على الفور: «لديك من أمريكا الضوء الأخضر لإصلاح الخلافات بين العراق وإيران، ونحن بدورنا سنطلب من شاه إيران أن يسحب قواته».

وحين توقف نيكسون عن الكلام، ساد الصمت قليلاً، ولم يترك بومدين الفرصة تمر دون أن يسأل بحزم : وفلسطين؟!

رد نيكسون : إن موضوع الشاه من صلاحياتي كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية، أما قضية إسرائيل، فهي من صلاحيات أمريكا...»

وفهم بومدين ما يعنيه الغرب ممثلاً في أمريكا، فسارع إلى عقد مؤتمر مصالحة حضره الشاه، وصدام حسين الذي كان نائباً للرئيس العراقي في ذلك الوقت، وتمت المصالحة، التي اعتبرت بداية للتنسيق بين القوى المنتجة للنفط(5).

من ناحية أخرى فقد أدرك الغرب خطورة الرجل، فعمل على تصفيته وروّج إعلامياً أنه مات بمرض «والدنستروم» وسارت الكتابات الغربية على تلك الفكرة.

ولم تكتف الكتابات الغربية بإثارة مرض بومدين، بل إنها ذهبت إلى التأكيد على أنه مات بنفس مرض أعدائه، إذ كتب الصحفي بيار أكوس والطبيب بيار تشنيك - وهما فرنسيان - في كتابهما المشترك(6) ما يلي :

[.. إنه لا يوجد عرق من البشر له دم خاص به ولذلك فإن كثيراً من الأعداء تكون دماؤهم من نفس الفصيلة

وأمراضهم واحدة.. هكذا كانت الحال بالنسبة لهواري بومدين الذي لم يكن يطيق أن يَجْمَعَهُ شيء مع الرئيس الفرنسي الراحل جورج بومبيدو، فمات من إصابة خطيرة في الدم تنجم عن مرض والدنستروم بإسم الطبيب السويدي الذي إكتشف المرض، وقام بتشخيصه ووصف طريق علاجه إبتداء من 1944..]

ولا يكتفي الكاتبان بذكر بومبيدو، بل يريان أن هذا المرض أصاب عدة سياسيين منهم رئيسة وزراء الكيان الصهيوني غولدامائير، وشاه إيران، لكنهما يعودان ليؤكدان على التشابه بين بومبيدو وبومدين، والمتمثل في جهلهما لحقيقة مرضهما، ويختلفان في أن بومبيدو توفي عن عمر يناهز 60 سنة، أما بومدين فقد مات - على حد قولهم - وعمره 46 سنة.

ويعترف الكاتبان بأن «تجربة بومدين الشخصية والتاريخية فريدة من نوعها، ومثلما هي حالة كل القادة التاريخيين كان بومدين قومياً عربياً ذا توجه إشتراكي وهو أحد

رجالات العالم الثالث الأكفاء، وأنه كان من بين أول من قالوا : أن الصراع الرئيسي، عند نهاية القرن الحالي، سيكون صراعاً بين الجنوب الفقير، والشمال الغني، أكثر مما سيكون صراعاً بين الشرق الإشتراكي، والغرب الرأسمالي».

غير أن هذا الإعتراف بالرجل وتجربته، لم يمنعهما من تمرير الفكرة التي يريدان إيصالها للقارئ، وهي الفكرة التي يؤمن به الغرب الإستعماري، إذ يقولان وبكل وضوح :

«..وعلى مدى حياته القصيرة ظل بومدين ينظر إلى فرنسا بإعتبارها العدو الذي لابد من إنزال الهزيمة به.. لقد كان رفضه لفرنسا شيئاً رضَعَهُ مع الطفولة في ظل الإستعمار الفرنسي[7]... وقد فهم مبكراً أن قوة فرنسا العظمى قد تراجعت بعد الحرب العالمية الثانية، واحتلت المرتبة الأولى الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي، مما يعني أن ساعة الخلاص منها في الجزائر قد جاءت...»

إذن فمسألة العداء واضحة من طرف الغرب. ويحاول كتابه إفراغها في الطرف الآخر، ولم يكن الأمر يتعلق ببومدين

فقط، بل بكل قادة الثورة الجزائرية، وهذا ما نجده في الفقرة التالية للكاتبين سابقي الذكر :

«... إن التاريخ يحكم بقسوة على القادة وسوف يشير إلى أن بومدين مثل ابن بله لم يفلح. في بناء أمة جزائرية متجانسة وثورية، فقد تغيرت الظروف بعد الثورة وتراجعت الصرامة الثورية لصالح المصالح الإنتهازية، والتاريخ المليء بالتناقضات يسجل أن بومدين رافض الغرب، اختار زوجة له تعلمت في سويسرا.. وربما أن تلك التناقضات جاءت بفعل مرض والدنستروم الذي بدأت أول آثاره تظهر على الرئيس الراحل منذ 1973»[8].

وهكذا يتضح العداء لتجارب دول العالم الثالث، وبالرغم من أن الحديث يدور حول مرض بومدين، إلا أن الكاتبين شمل بن بله مما يعني أن الهدف هو تبيان فشل القيادات الوطنية في الدول المستقلة، وإذا كان لهم حق نقد تجربة بومدين لطولها، فكيف لهم نقد تجربة ابن بله، وهي قصيرة، ولا أدرى عن أي مصلحة إنتهازية يتكلم الكاتبان

بالنسبة للرئيس ابن بلة وبومدين.

والواضح أن درجة العداء عند الكاتبين عالية، لكونهما يحاولان أن يجعلا من بومدين مجرد رجل مريض، وبالتالي فقراراته غير صائبة، وبما أن المرض قد بدأه على حد قولهم منذ 1973، فإن مساهمة الجزائر في حرب أكتوبر مادياً وبشرياً ومعنوياً غير صائبة.

ومع عدم إعترافنا كثيراً بالتأويلات التي ترجع كل شيء إلى التآمر الغربي، إلا أن الواضح، في الأقوال السابقة، هو أن الغرب كان يسعى لتصفية بومدين. مادام أحد الزعماء القياديين والمشاغبين - على حد تعبير الدول الغربية - وإذا كان الغرب قد تمكن من وصف ما تعرض له بومدين، بأن مرض والدنستروم فإن درجة العداء من الطرف الغربي، تجعلنا نشك في التشخيص الغربي، خصوصاً وأن هناك فحوصاً أخرى تؤكد على اغتياله بالسم، وقد لا يكون الغرب هو الذى استعمل السم، وإنما ما هو أكثر من ذلك كأن تكون الأشعة مثلاً، وعلى العموم، فإن الغرب - فرنسا والولايات المتحدة -

يظل أحد المتهمين الرئيسيين باغتيال بومدين، وإن لم تثبت الأدلة.

• ثالثاً: القنبلة الإسلامية.. والزعماء الثلاث:

يرى بعض المحللين أن الغرب لم يكن معادياً لبومدين بسبب مصالحه فقط، ولا لوقوفه ضد إسرائيل، ولكن لقضية أهم كان يخفيها تتعلق بتشكيل قطب ثالث في العالم يمثل الأمة الإسلامية.

والقطبية تتطلب القوة، والقوة يمثلها السلاح، والسلاح النووي بالذات. وتشير بعض المعطيات إلى أن بومدين طرح عام 1974 موضوع تصنيع القنبلة الإسلامية النووية خلال لقاء مغلق بينه وبين رئيس الوزراء الباكستاني علي بوتو، والعقيد الليبي معمر القذافي، وفي حضور وزير الخارجية الجزائري عبد العزيز بوتفليقه[9].

ويذهب الدكتور محيي الدين عميمور إلى القول « ربما

كان مما يراود الرئيس بومدين تصورات كثيرة حول إمكانيات التعاون الجزائري الباكستاني في مجال كان الحديث حوله يدور همساً، وهو ميدان التعاون النووي، حيث كان الباكستان بقيادة بهوتو، تعطي هذا الميدان إهتماماً كبيراً، إلى الأوجه التي دفعت البعض إلى القول بأن هذا الإتجاه نحو إمتلاك قوة نووية هو الذي أدى إلى التخلص من بوتو خوفاً من ولادة ما يسمى في الصحف الغربية القنبلة النووية الإسلامية...»(10).

إذن فالدائرة الإسلامية واضحة بالنسبة لبومدين، ومادام الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن يخشاه الغرب وأن يغتاله. خصوصاً وأن فكرة إنشاء القنبلة الإسلامية بدأت توضع بنودها على النحو التالي :

- التمويل من ليبيا.
- العلماء من الباكستان.
- التجارب في الجزائر.

وكان الغرب - كعادته دائماً - يتابع ذلك الاجتماع،

وعرف ما يدور فيه. وبدأ التنفيذ، فأطيح بالرئيس علي بوتو، وأرسل إلى حبل المشنقة، وتعذر اغتيال بومدين في نفس الوقت الذي أعدم فيه بوتو، لأن الجيش وجهاز الأمن الجزائريين صعب اختراقهما، لكن ما كان ليترك...

وتوالت السنوات، فمنذ حرب البترول 73، ثم مؤتمر لاهور 1974.. والذي ظهر المسلمون فيه كقوة، وإلى غاية موت بومدين مرت خمس سنوات، تم الترتيب فيها لتصفية بومدين بعناية خاصة، وكان الترتيب بحجم مكانة الرجل وقوته.

والملاحظ أن تعامل الغرب مع بومدين - لتصفيته - إختلف مثلاً عن تصفية الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يقود الأمة العربية، فهذا الأخير حاولوا القضاء على حب الشعوب العربية له بدفعه نحو الهزيمة أولاً ثم الاستسلام بعد ذلك ولم ينجح هذا الأسلوب، لأن العرب إلتفوا حوله، ولأن الإستسلام لم يحدث بعد، صارت هناك حرب إستنزاف، لم يكن فى إمكان إسرائيل الإستمرار فيها. واختلفت أيضاً تصفية

بومدين عن تصفية الملك فيصل.. الذي تمنى أن يصلي في القدس، فوجهوا له من يقتله من العائلة المالكة نفسها، بغض النظر عن الحالة الصحية والعقلية للقاتل.

كان لابد أن تكون التصفية في مستوى التحدي، لذلك جاء السم من إسرائيل. وهو نفس العقار الذي استخدم في قتل الدكتور وديع حداد مساعد جورج حبش. ولازم بومدين فراشه، وتوقفت قدرته على التركيز. وفي تلك اللحظات كان يستجمع قدرته ليقرأ القرآن، لكن لم تبقى فيه قوة، وكانت النهاية، ولكن هل عداءة الغرب، ووقوفه ضد مصالحه، ومحاولته لجعل المسلمين قوة هي أسباب اغتياله؟، هناك من يضيف أن وراء اغتياله سبب آخر هو قضية الصحراء الغربية، ويتهم الملك الحسن الثاني مباشرة، فهل هذا كلام يعقل؟

لانعطي إجابة الآن.. إنما نتابع موقف المغرب، وغيابه عن تشييع جنازة بومدين، ورسالة بومدين الأخيرة للملك الحسن الثانى.

• رابعاً : الحسن الثاني وبومدين : الرسالة والسم

في 30 ديسمبر 1978 أشارت وكالات الأنباء العالمية إلى أن تقارير صحفية من الجزائر جاء فيها : «أن الجزائر رحبت في البداية بالزيارة - أي تشييع جنازة بومدين - لكنها أعلنت بعد ذلك أن زيارة المغرب غير مرغوب فيها، وأوضحت أن علاقات البلدين المتوترة بالفعل بسبب النزاع على الصحراء الغربية منذ أربع سنوات، زادت سوءاً حين أعلنت الجزائر أن المغرب سيوفد إلى الجنازة محمد البصري، وهو أحد زعماء المعارضة اليسارية، الذي صدر حكم غيابي بإعدامه لإشتراكه في مؤامرة ضد الملك..».

كما نلاحظ فإن صياغة البرقية متضاربة فقراتها إلى حد بعيد، بحيث لايمكن معرفة رفض الجزائر هل هو لموقف خاص تجاه المغرب، كأن تكون مثلاً علمها بالمشاركة في اغتيال بومدين؟ أم لأن المغرب رفضت أن يمثلها محمد البصري. على إعتبار أنه معارض؟

وبعيداً عن البرقية، فإنه لايوجد ما يؤكد مشاركة المغرب

في جريمة اغتيال بومدين، إلا إذا اعتبرنا ما قاله مُوفد الملك الحسن للرئيس بومدين. قبل مرضه بشهور وكلام مبعوث الملك الحسن الثاني له قراءاته متعددة منها قراءة الصحفية فايزة سعد التي اعتبرت رسالة الملك لبومدين بمثابة تحذير، وإن كانت لم تحدد الموفد من طرف الملك.

فقد قال موفد الملك الحسن الثاني لبومدين حين قابله في الجزائر : «سيادة الرئيس يقول لك مولاي إننا إذا لم نلتق في مطلع العام القادم.. فإننا لن نلتقي أبدا.».

والقول السابق له قراءات متعددة كما ذكرت آنفاً - لكن لا يمكن إعتباره دليلاً كافياً عن إتهام المغرب بالمشاركة في اغتيال بومدين، غير أننا حين نضيف إليه الرسالة التي بعث بها بومدين للملك في أول أكتوبر 1978، وهي آخر رسالة بعثها إلى الملك الحسن قبل وفاته. تبدو لنا الصورة جلية، وهي إن عداوة الملك لبومدين - إذا اعتبرنا إختلافهما حول قضية الصحراء الغربية عداوة، علماً بأن الحسن الثاني في كتابه ذاكرة ملك «يذكر بومدين بالخير - قلنا تبدو لنا العداوة بينهما متعلقة

بمسألة التراب والحدود بين البلدين، ومسألة تقرير المصير للدول والشعوب كمبدأ تؤمن به الجزائر.

ففي الرسالة هناك طرف أول وهو الجزائر ممثلة في بومدين تدعو للإخاء والتعاون والحوار بين دول المغرب العربي، وهناك طرف آخر هو المغرب يُطلب منه رؤية الحق بالبصيرة، ولا أعتقد أن هذا الإختلاف. الواضح في الرسالة، والذي تحاول الجزائر تجاوزه - يمكن أن يتحول إلى تصفية جسدية عن طريق السم، وحتى لا نطيل على القاريء نتركه يقرأ معنا الرسالة - وهي كما ذكرت آخر رسالة بعث بها بومديں لملك المغرب الحسن الثاني [11]:

« .. صاحب الجلالة :

تسمحون لي يقيناً بأن أرثى هنا للدبلوماسية العلنية، التي تبدو وكأنها اليوم قد طغت على الدبلوماسية التقليدية، وها أنذا أجد نفسي مضطراً إلى اللجوء إليها بدوري، ولقد كنت أود كذلك تماماً كما تمنيتموه أن أستأنف الإتصال بكم، وما من شك في أن الحوار المباشر كان من الممكن أن يكون

أفضـل، ولكن هل يمكن تـصور مثـل هذا الحوار بعـد المواقف التي اتخذها كل منّا مؤخراً بشأن القضية الفلسطينية وإمتداداتها على الشرق الأوسط والأمة العربية؟

ومع ذلك فبإستطاعتي أن أؤكد لكم منذ الآن أن الجزائر لن تتـأخر أمام أي مـجهود لتقديم مسـاهمتهـا المتواضـعة في البحث عـن سلام عادل بين المتحـاربين في النزاع الدائر حـالياً بالصحراء الغربية.

ومـرة أخـرى ألاحظ للأسـف من خـلال رسـالتـكم أن التأكـيدات تتسـم بالقطيعـة، وأن الاتهامـات الموجهة للـجزائر أخطر منهـا، وكنت أشعر بوقـع المفاجأة لولا أثر التـعود ولولا الحـصانـة التي يوفـرها هـذا التـعود. علـى أني أود ألا أسـمح لنفسي بالإعتقاد في كون الإنتهاكات المتكررة المزعومة للحدود المغربية من قبل الجيش الوطني الـشعبي ليس لها من غاية سوى تبرير عدوان مبيّت على بلدي.

ومهما يكن من أمر فإن مسعى كهذا لن يكون صادراً إلاّ عن تصميم واضح على تضليـل الرأي العام المغربي والأفريقي

والدولي عن طبيعة الصراع الذي يحزن منطقتنا، ومع ذلك فقد استطاعت جلالتكم، وأنا بالذات أن نرتفع بسياسة بلدينا طيلة سنوات عشر، إلى مستوى التطلعات الطبيعية لشعبينا اللذين تربطهما - كما تعلمون - روابط أقوى من المتطلبات الحتمية التي يقتضيها مجرى الحوار، وفي تلك الفترة عرفت منطقتنا عهداً من الإزدهار، كما استطعنا رغم المحن والشدائد المحلية والعربية أن نعمل معاً يداً في يد، وأن نسهم مساهمة حقيقية في تحرير شعوب قارتنا، والعالم العربي، وفي ترقية العالم الثالث على المسرح الدولي.

ولقد كانت مثل هذه السياسة تستمد إلهامها الأول من متطلبات الأخوة وحسن الجوار، والتعاون التي تكرسها معاهدة «إيفران»، تلك المعاهدة التي نود أن نؤكد هنا تمسكنا الثابت بها، وهذه المتطلبات الثلاثة كانت تركز أساساً على السلاح، الذي ما من شك في أنه يشكل في نظر جلالتكم، وفي نظرنا جزءاً لا يتجزأ من عدالة الشعوب وحريتها.

ثم جاءت إتفاقية 1972 التى أشهدت أفريقيا والعالم

على التوقيع عليها لتساعدنا بالذات على التسامي بصورة نهائية على ما تواضعنا بإتفاق مشترك على تسميته حيناً «بكبوات الطريق» وأحياناً أخرى «بعثرات التاريخ» وحتى نؤكد إيماننا نحن بالتصديق على إتفاقات الرباط بشقيها المتمثلين في ترسيم التعاون ورسم الحدود بين الجزائر والمغرب.

ولا نزاع في أن صفحة من هذا التاريخ قد كتبت بهذا الإتفاق، مكرسين بذلك حرمة الحدود الموروثة لدى إسترجاع إستقلالنا، ومجنبين شعبينا سواء لهذا الجيل أو ما يعقبه من أجيال شر ما يمكن أن يحدث من حالات سوء التفاهم أو التوترات، بل والمآسي الممكن حدوثها على الدوام، والتى لا يمكن أن نقدر عواقبها الوخيمة.

فمن وراء المودة الصادقة التي صنعتها رفقة في الكفاح، وأخوة في السلاح كانت العلاقات القائمة بين شعبينا والروابط الشخصية مع جلالتكم، تزيدها قوة ومتانة تلك الثقة المتبادلة كذلك، والصدق الذي لا تشوبه شائبة، والصراحة التي لا تخالطها مجاملة، بل وكل شيء يستبعد إلا الإلتباس والرياء

والمداهنة.

إن مسعانـا رغم كل ما قيل وكتب، ليتسم بولاء مطلق روحاً ونصاً لمعاهدة «إيفران» ولإتفاقيات سنة 1972، وفي الوقت ذاته لمبدأ تقرير الشعب الصحراوي لمصيره، ذلك المبدأ الذي ما برحت الجزائر بالتشاور مع المغرب وموريتانيا. تدافع عنه سواء على صعيد الهيئات الإقليمية، أم في المحافل الدولية، وهذه السياسة المتصلة بعبقرية شعبنا وبتاريخه، لا يمكن أن نتنكر لها مهما كان الثمن.

وحيث أن الأمر يتعلق بإلتزامات رئيس دولة إزاء شعبه وبلده، فإن جلالتكم على علم بأن أحداثاً ذات خطورة قصوى قد سبق أن شهدت بهدوئنا وتسامحنا في كل الظروف، وبعزيمتنا على ألا نألوا جهداً في سبيل تفادي ما لا تحمد عقباه وتجنيب شعبينا وتاريخنا وأسرتنا الروحية ويلات فتنة مشحونة - لا محالة - بمخاطر وخيمة العواقب، ولقد حان الوقت لنكرر القول على مرأى ومسمع من العالم أنه ليس ثمة أي نزاع قائم بين الجزائر والمغرب، ومن واجب شعبينا ومن واجب

العالم أن يعلموا ذلك.

صحيح أنه ليس من السهل الميسور دائماً الإختيار بين سياسة قائمة على المصالح، وسياسة قائمة على المبادئ، ولقد اختارت الجزائر من جهتها، وغالباً ما كان الشعب الجزائري لولاها أن يكون على ما هو عليه. وما يجب أن يكون عليه لقد كان إلتزامنا إزاء تصفية الإستعمار، إلتزاماً واحداً في أفريقيا وآسيا، وأمريكا اللاتينية ولا ننوى تغييره أبداً.

والذي وقع هو أنكم تتكلمون اليوم عن حوادث وقعت داخل حدودكم المرسومة سنة 1972، والتي اعترفنا بها، واعترفت بها أفريقيا والمجموعة الدولية، وإني لأؤكد لجلالتكم، وأنا على بصيرة من الأمر بإسم الروابط التي لا تنفصم عراها والتي ستقوم دائماً بين شعبينا، إنه لم يتخط أي جندي جزائري أبداً حدودكم الوطنية، وبالذات تلك الحدود التي رسمناها معاً سنة 1972.

وقد سبق لي، قبل بضعة أشهر فقط أن صرحت رسمياً وعلانية أمام المجلس الشعبي الوطني، أن القوات المسلحة

الجزائرية لن تتدخل بأي حال من الأحوال إلى ما وراء حدودنا، وأنها وهي الحارسة اليقظة لسيادتنا الوطنية، ولوحدة ترابنا ستحرص على صد كل هجوم يشن على بلدنا، وما يزال خط سيرنا هذا دون تغيير.

ويبقى بطبيعة الحال نزاع الصحراء الغربية وإمتدادات كفاح الشعب الصحراوي ذلك الكفاح الذى ما برحنا نحن وغالبية المجموعة الدولية نؤمن بشرعيته، والذي ليست مساندتنا له سراً غامضاً، ولا سرا من أسرار الدولة، فثمة مشكلة سياسية لا يمكن أن تحل في نظرنا إلاّ بالطرق السياسية.

وإذا كنتم تدينون مثلنا إلحاق الأراضي بالقوة، وترفضون سياسة الأمر الواقع، وتؤمنون بحق الشعوب كبيرها وصغيرها في الوجود، فلا يمكن إلاَّ أن تكون في صف واحد للسير بمنطلقنا - إذا ما كانت تلك إرادة الآخرين - وإرادة شعبينا الشقيقين على الأقل، في الطريق الوحيد الجدير بهما، طريق الوحدة ضمن إحترام الإختلافات والمؤسسات والإختيارات، ومن المؤكد أن مهمة كهذه ليست مهمة ميسورة، لكن هل هي

فوق المجهود الصادق والمتظافر الذي يبذله رجال هم على رأس الجيل الذي صنع الإستقلال الوطني سواء في الجزائر أم في المغرب؟

أما أنا فبودي ألا أكف عن الإيمان بحكمتكم، وأأكد لكم مرة أخرى أمام الله، وأمام التاريخ صدق إيماني الراسخ في بناء مغرب سيتم حتماً عن طريق الحوار، وإحتكاك الأفكار، لا عن طريق الإتهامات وقرع السلاح..

وأرجو من جلالتكم قبول فائق التقدير..

أخوكم : هواري بومدين.

إن الرسالة السابقة تبين لنا مستوى العلاقة بين البلدين في ذلك الوقت، وقد كتبت - إذا كان التاريخ صحيحاً - في الاسبوع الذي انتاب بومدين المرض، ولم يتحدد طبيعته إلا بعد مدة.

ومهما تكن الإتهامات الموجهة للملك الحسن الثاني، فإنه - كما ذكرت - لا توجد أدلة ليس على صحة الإتهام أو ثبوته، وإنما على وجود بيانات كافية تعطي فرصة للمحللين

والكتاب أن يبينوا مواقفهم ويصيغوا إتهاماً للملك بالاغتيال، خصوصاً بعد أن ظهر آخر متهم وبشكل مباشر باغتيال بومدين، ألا وهو الرئيس العراقي صدام حسين، فما مدى مصداقية هذا الإتهام يا ترى؟

• خامساً: طلاس يتهم صدام باغتيال بومدين

منذ أن مرض بومدين في نهاية سبتمبر 1978، ثم وفاته في نهاية ديسمبر من نفس السنة، والرأي العام الجزائري يتساءل عن أسباب وفاته، ودارت أحاديث كثيرة، أغلبها - شائعات - على أن بومدين أغتيل، لكن بماذا أغتيل؟ ومن الطرف المستفيد؟ ولماذا أغتيل أصلاً؟ هذه الأسئلة لم تكن لها إجابات أولاً لأنها بنيت على إشاعات، وثانياً: لأن الإشاعات نفسها كانت تظهر وتختفي حسب الوضع الذي عاشته الجزائر بعد وفاة بومدين.

والملاحظ أنه كلما مرت الجزائر بأزمة تتعلق بتغير مواقف الدولة الجزائرية، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية،

مثل تغير النهج السياسي للبلاد، أو غلاء المعيشة، وأخيراً غياب الأمان، إلا وتذكر الجزائريون بومدين، إحساساً منهم بوجود مؤامرة على الجزائر كلها، بدأت - طبعاً في نظرهم - باغتيال بومدين. حتى جاءت الذكرى السابعة عشرة لوفاة بومدين، وفيها أعلن رسمياً عن اغتيال بومدين بالسم من طرف الرئيس العراقي صدام حسين(12). وكان علي أن أبحث في الموضوع، خاصة بعد أن تساءل بعض المتتبعين عن حقيقة الخبر. وبما أن للرئيس العراقي صدام حسين مكانة خاصة في قلوب الجزائريين، فكان لابد من توضيح الأمر وتفصيله، ذلك لأن حرب الخليج الثانية تركت آثارها على الشعب الجزائري بشكل واضح، وما كان لأحد أثناء الحرب أو بعدها القدرة على نقد الرئيس صدام، لذلك تعذر قبول الخبر في بداياته، وكان علي أن أشد الرحال إلى دمشق وألتقي بالعماد الأول ووزير الدفاع، ونائب رئيس مجلس الوزراء(13).

وحين إلتقيت بالعماد الأول مصطفى طلاس في بيته، كنت أتوقع منه أن يرفض الرد على أسئلة كثيرة، بدت لي

لحظتهـا أنها محرجة، وإستـفزازية، لكنني فوجئت بأن الرجل يتمتـع بقدر كبير مـن المرونة، ويطوف بمحاوره في آفـاق رحبة ولا يكل أو يمـل من الشرح والإضـافة والتـحليل، وكأنـه كان يحس بما أحمـل من مفهوم أول هَمّ تهـمة اغتيال بـومدين من طر ف رئيس عزيز عن قلوب الجـزائريين، وهو صدام حسين، وهَم ثان هو الأسئلة التي سأنوب عن القراء في طرحها»، وهَم ثالث : هو الوضع الذي يعيشـه العراق، والذى لا يسمح بفتح الجروح ثانية خصوصاً بعد عودة عائلة آل المجيد، واغتيالهم في بغداد!

وفي ذاك الحوار(14) أكد لي على «أن واقعة قتل بومدين من طرف صدام - بـالسم حقيقـة وثابتة المائة بالمائة، فـالرئيس بومديـن كان يعتـقد - وهو علـى حق في ذلك - أنه بإمـكانه عمل شيء لصالح الأمة العربـية لأنه منطلق من رحـم الجزائر، وترابها وثروتهـا وإمكانياتها أيضاً، وبومـدين هو الذي أشرف على توقـيع 1975 في الجـزائـر بين الـعـراق وإيران، وكـان بومدين يعتقد أن هذا الإتفـاق يشكل على «صدام حسين» يداً

بيضاء، وأنتظر أن تقابل هذه اليد البيضاء بيد بيضاء أخرى من «صدام»، فحين انسحبت مصر في عهد السادات، وأصبحت في موقع العدو، وعلى الحياد، لماذا لا تشكل سوريا والعراق جبهة واحدة متماسكة تقابل إسرائيل مادامت سوريا قد أصبحت تواجه وجيدة؟

لذلك ذهب الرئيس بومدين إلى بغداد، واتفق مع الرئيس حافظ الأسد على أن أي إتفاق يتم مع العراق بين بومدين وصدام توافق عليه سوريا، وحين إلتقى بومدين بصدام لم يستجب له هذا الأخير، فقال له بومدين : أسوأ عمل قمت به في حياتي هو إتفاقية الجزائر، لأنني كنت كالزوج المخدوع آخر من يعلم، وأضاف لقد إتفقت يا صدام مع الأمريكان وجئت لي بشهادة زور وقعت عليها دون أعلم كنتم في بيتي وأنا لا أعلم أنكما متفقان مسبقاً، فقال له صدام حسين : نعم أنا اتفقت مع أمريكا..»

وأسأله : لكن لماذا قتله وما نوع السم ؟

يقول العماد طلاس : قتله لأن بومدين لو بقي حياً

لكشف كل أوراق صدام حسين للرئيس حافظ الأسد، بل إنه كان سيكشفه في كل المؤتمرات العربية، وكان الهدف ألا يكون بومدين حاضراً في مؤتمر القمة الذي عقد في بغداد. وكان لابد أن يرحل بومدين في نظر صدام.

أما السم، فهو سم «الثاليوم»، إذ شرّب صدام بومدين عند وداعه كوباً من العصير به سم الثاليوم، وهو سم مركب من سبعة أنواع، حتى إذا تمكن الدواء بمفرداته من القضاء على النوع الأول يبدأ الثاني، فالثالث.. إلخ وهو سم لا ينفع فيه العلاج مطلقاً، وعندما جاءنا في مؤتمر الصمود والتصدي - وهو نازل من المصعد - قال للرئيس الأسد : أحسّ أن أمعائي تتقطع - وأكثر الأماكن التي يؤثر فيها السم هي المعدة - وأود إذا وقع لي شيئاً أن أكون في الجزائر وحين حكى لي الرئيس هذه القصة نزلت دموعي يومها، لأن بومدين حتى وهو يموت يحب تراب الجزائر».

وأنا أتابع ما يقوله العماد الأول مصطفى طلاس، كنت حزيناً جداً للوضع العربي، فإما أن صدام أغتال بومدين فعلا،

وفي هذه الحالة على الحكومة الجزائرية والشعب الجزائري أن يأخذا موقفاً تجاهه، وإما أن أنه لم يغتاله إذن فلماذا إتهامه؟ ولمن مصلحة من هذا الإتهام؟، وأمام هذه الأسئلة وجدت نفسي أستفسر من العماد طلاس قائلاً : هل هذه معلومة أم إستنتاج؟ وأجابني على الفور، إنه إستنتاج سياسي، لأن بومدين كان سيكشف كل أوراق صدام سواء إتفاق الجزائر 1975 الذي تم بين العراق وإيران، أو الموقف من التحالف مع سوريا، ولم يستطع بومدين كشف أوراق صدام، لأنه توجه بعد 24 ساعة إلى الجزائر، ومنها توجه إلى موسكو وكان الرئيس الأسد في رحلة إلى موسكو، فطلب مقابلة بومدين، فرد برجينيف بأنه لا يقابل أحداً، فقال له الأسد : أنت تعرف العلاقات الأخوية بين الجزائر وسوريا، ولكن الأسد لم يستطع مقابلته لأن بومدين دخل في غيبوبة، وبالتالي تعذر لقاؤه.

ولكن أطباء الغرب يقولون : أن بومدين مات بمرض «والدنستروم» ألا يعني أن هذه الحالة من المرض قريبة أو متطابقة مع المرض بالسم وبالتالي براءة صدام حسين؟.. هكذا

سألت العماد طلاس، وأنا كل حيرة مما سمعته، وأجابني بقوله:

«الحقيقة أن خبرتنا مع الرئيس صدام حسين أكثر منكم، ونحن نعرف أن هاجس الموت يطارده، وإستعمال السم أمراً مركزاً في دماغه، ومعروف بقتل خصومه بالسم وهذه الطريقة صارت معروفة».

وعندما وجدت العماد الأول طلاس يؤكد على أن صدام حسين هو الذي اغتال بومدين، أردت أن أعرف أكثر، وحاولت إستفزازه بسؤال بعد أن كررته عدة مرات وكل مرة كان يجيبني وينسى الرد عليه، وكان السؤال كما يلي :

لماذا تأخر إعلانكم عن خبر الاغتيال بالسم لهذا الوقت مع حبكم الكبير لبومدين؟

ويجيب العماد الأول مصطفى طلاس بقوله : أنا قلت هذا الخبر أكثر من مرة في مجالسي الخاصة، وقلت ذلك : للرئيس حافظ حين زارنا بومدين آخر مرة، أن تأثير السم كان بادياً على وجه بومدين فقال لي : الرئيس الأسد هذا أصبح

حقيقة علمية، من جهة أخرى فإن الظروف التي كانت تمر بها الأمة العربية لم تكن مواتية لإثارة مثل هذا الموضوع، ثم أننا كنا نجري مع العراق إتفاقات، وطبعاً في النهاية ظهر صدام على حقيقته.. وكان كاذباً.

وأسأله للمرة الأخيرة : سيادة العماد أن خط بومدين كان السودان ثم يوغسلافيا، وقد مرض في السودان، وبقى أياماً قليلة في يوغسلافيا بطلب من الرئيس تيتو وعولج هناك ألا يعنى هذا أن الرئيس صدام بعيداً عن موضوع الاغتيال تماماً؟

يقول العماد طلاس : لا، هذا ليس صحيحاً فقد جاء من العراق مباشرة، وهذا ثبت عندنا بالتاريخ، وبالساعة. ونحن متأكدون من هذا، لأنه ذهب إلى بغداد من أجل التقارب بين سوريا والعراق...

ويذهب الرئيس السوداني الأسبق جعفر النميري في حديث لي معه حول هذا الموضوع(15) إلى القول :

«أذكر أن آخر مرة زار فيها السودان كانت في إجتماع

للدول الأفريقية، وفيه أجرينا صلحاً بين المغرب وموريتانيا، وكان بومدين في صحة جيدة، حتى أنه كان الرئيس الوحيد مع وفده الذي يسير من مقر الإقامة إلى قاعة المؤتمرات مشياً على الأقدام والأمطار تنزل، ومرضه وقع بعد زيارته للسودان بمده، فكيف يقال أنه مرض في السودان؟ غير أنني أرجح أن سبب مرضه وموته هو السيجار الكوبي الذي كان يدخنه بشراهة أما عن سؤالكم عن حقيقة الاغتيال، فأنا لا أخفيكم هذه أول مرة أسمع فيها أن بومدين قد أغتيل، ولم يمت بالمرض الذي ذكره الأطباء سابقا..».

وإذا كان الرئيس النميري ينفي أنه مرض في السودان، فإنه بذلك يعني أن الواقعة التي ذكرتها مصادر مختلفة غير صحيحة، ولم نستطع أن نتحقق من موضوع علاجه بعد ذلك في يوغسلافيا، لأسباب عديدة أهمها الوضع الحالي وما سبقه في يوغسلافيا السابقة، وفي هذه الحالة لن يبقى أمامنا إلاّ الإتهام السوري لصدام حسين، على إعتبار أنه إتهام صادر من جهة مسئولة، بعيداً عن القبول به أو رفضه.

والواضح أن أخطر ما في هذا الإتهام الإعلان به صراحة، ومنذ مدة. من جهة، والتبليغ به في وضع صعب بالنسبة للعراق، غير أنه علينا أن نوضح أن إتهام صدام حسين باغتيال بومدين لا يعني إتهام الشعب العراقي، ناهيك عن أن فتور العلاقات بين الجزائر والعراق منذ تراجع العراق عن الإشتراك في جبهة الصمود والتصدي، التي أنشئت في طرابلس الغرب - ليبيا - في ديسمبر 1977، رغم أنه شارك بوفد هام لم يكن مؤهلاً لإتخاذ القرار على حد تعبير الدكتور محي الدين عميمور - المستشار الإعلامي السابق لبومدين، قلت أن فتور العلاقة لا يعنى أنه دافعاً رئيسياً للاغتيال.

ولكي تكون الصورة واضحة للقارئ فإنه ليس مهمتنا البحث في خلفية هذا الإتهام مع معرفتنا المسبقة للخلاف بين حزبي البعث في كل من سوريا والعراق، ولكن يهمنا أساساً أن هناك جهة مسئولة أعلنت عن الإتهام بكل صراحة وإن كانت تأخرت في الإعلان بالخبر، ويكاد يكون صدام حسين الجهة الوحيدة التي اتهمت علانية باغتيال بومدين، بغض النظر عن قبولنا أو رفضنا لهذا الإتهام.

وعلى عكس جميع الأطـراف الأخرى التى جاء ذكرها، يبدو الرئيس صدام حسين هو القاتل لكل من لا يرضى عنه، ولنا أن نتساءل عن قدرة هذا الرجل، وتواجده في كل مكان؟. مما يحي بالتوقف ملياً أمام إتهامه، وأمام إتهام الملك الحسن الثاني أيضاً، ذلك لأن الوقوف سيؤدي بنا إلى الحذر من الإنزلاق وراء إدعاءات تدعيها أطراف أخرى، وأيضاً يقذف بنا في أتون معركة العداء القائمة الآن بين الحكام العرب، ويبعد التهمة عن الأعداء الحقيقيين للأمة خصوصاً العدو الإسرائيلي، والغرب، وهذا ليس نجاحاً لهما، لانهما ينتميان لحضارة منطقها الغدر والقوة، ولأن مشاريع الدول قد تعطل، وقد تبقى عقوداً من الزمن في التخلف، لكن النهوض لابد منه، إذ لا مفر للعالم المتقدم من إدماج المتخلفين في حضارته - حباً أو كرهاً - ومع ذلك كله، لنا أن نتساءل ألا يكون بومدين قد أغتيل من طرف المحيطين به؟ إنه سؤال مشروع تفرضه طبيعة المرحلة التي جاءت بعده، ويفرضه الواقع الجزائري الآن.

• سادساً: الاغتيال.. وصمت المقرَّبين:

بوفاة بومدين طمست جملة من الحقائق المتعلقة به شخصياً، والمتعلقة أيضاً بملفات كبرى تخص الدولة الجزائرية، وكأن الذين كانوا حوله قد أجمعوا على إخفاء حقائق بعينها ارتبطت بمصالحهم الخاصة.

وفي السنة الأولى لوفاته كان الكلام عن إستحياء فما يخص إنجازاته ومواقفه. وبعد ذلك عملت مختلف القوى على محو جميع ما قام به، ولم يتحرك المقربين منه إطلاقاً، إلا قليل منهم، ومنهم من إلتزم الصمت إلى الآن، سواء بالنسبة لمرضه أو للدفاع عن إنجازاته، والتي هي في حقيقتها إنجازات فريق بأكمله.

لقد كنا ننتظر أن نرى دفاعاً مستميتاً من عناصر السلطة على إعتبار أن فريق عمل، لكن اتضح أن جماعة تابعة، أكثر منها صانعة القرار، ومن هنا جاء الشك في بعض منها، وإلى الآن لم يأت اليقين الذي يقتل هذا الشك.. وللتاريخ فإنه بإستثناء رئيس الحكومة الأسبق، ومدير المخابرات السابق –

قاصدي مرباح - الذي أغتيل في ظروف غامضه بعد 16 سنة من وفاة بومدين - بإستثنائه لم يكلف أحدهم عناء الحديث عن مرض بومدين، الذي ظل - وربما سيظل لعقد آخر - مثار إستفهام من الرأي العام.

وقاصدي مرباح - رحمه الله - كانت كل أحاديثه عن بومدين تدور حول مرضه ولم يشر من قريب ولا بعيد إلى مسألة اغتياله، إلا مرة واحدة، وقد قالها سراً في لحظة غضب لأحد الصحفيين - إن كان صادقاً - نحن قتلناه، وافعلوا ما شئتم، لكن عند تأملنا لصيغة الخطاب في الأحاديث المختلفة لقاصدي مرباح، نحس أن قلب الرجل مفعم بحب بومدين.

وإذا كان جيلنا يؤمن بالقاعدة التي ذكرها بومدين وهي «بناء دولة لا تزول بزوال الرجال»، فقد يرجح علم جهات مسئولة داخل الجزائر : بأن بومدين أغتيل، وحفاظاً على مصالح عليا للدولة - وللأجهزة مبرراتها - لم تتناول الموضوع، وأغلق الملف مثلما أغلق ملف وزيرنا للخارجية محمد الصديق بن يحي الذي تفجرت به الطائرة بين أجواء

العراق وإيران أثناء الحرب بينهما، والسلطات الجزائرية تعرف من المسئول على العملية، لكنها لمصالح عليا للدولة لم تعط تفسيرات مقنعة للرأي العام.

ومهما تكن مبررات الأجهزة المعنية، فإن صمت المقربين مرعب ومخيف، لأن الرأي العام ما يزال يعتقد في أن بومدين مات مقتولاً، مع إدراكه أن السلطات الجزائرية - أنذاك - لم تبخل في إحضار الأطباء وإنفاق المال من أجل شفائه.

وإذا كنا نتكلم عن وجود طرف داخلي"له مصلحة في موت بومدين، فإننا في حقيقة الأمر نتكلم عن كثيرين لهم مصالح في اغتيال الجزائريين، وبالعشرات والمئات، والآلاف كل يوم، منذ بداية الأزمة المفتعلة في 1992 . وحين يغتال قائد يمثل الأمان والقوة لشعبه، فمن الطبيعي، أن يتصارع أشباه القادة بعده، ويكون لهم أتباع ومرتزقة، بغض النظر عن الأسماء والمبررات، وحتى الأهداف الظاهرة والخفية.

لقد كان غيابه - وما يزال - فرصة لخفافيش الظلام، مادام الظلام قد عَمّ وليس شرطاً أن يكون اغتياله من الداخل،

إنما قد يكون من الخارج الذي حقق رغبة دفينة ومنتظرة لعناصر الداخل، وهكذا تتلاقى أحياناً مصالح الداخل مع مصالح الخارج، دون وعي مجموعة الداخل، أنها في أمنيتها تحقق عودة الاستعمار، فما بالك حين تحطم الدولة من أجل الدفاع عن مصالحها التي هي بالضرورة قريبة - إن لم تكن متطابقة مع أطماع الخارج.

وإذا كان بعض من الذين لا يريدون تجسيد أحداث التاريخ، يرفضون فتح مثل هذه الملفات - ليس في الجزائر فقط، وإنما في كثير من الدول العربية - فإنه على جيلنا أن لا ينسى أن النار تبدأ من تطاير شرارة واحدة، وقد بدأت شرارة الاغتيالات في الجزائر بموت بومدين.

وليس ضرورياً ولا مشروطاً أن بومدي مات بالسم - أي مغتالاً - انها المهم كيف يرى الشعب الجزائري موته، والاجابة واضحة منذ أن كنا صغار حين مات ونحن نسمع أباءنا وأمهاتنا يتكلمون عن تصفية بومدين - أي اغتياله وليس موته - وقد يقال أنهم عامة لا يدركون شيئاً، لكن للضمير

الجمعي إحساسه.

قد يكون الإحساس نابعاً من غياب البطل، وقد يكون نابعاً من غياب الأمان، وقد يكون من أمان وآمال وطموحات عبَّر عليها أثناء حكمه، وبعد موته،.. المهم أن هذا الإحساس موجود.. فهل أخطأ الشعبُ الجزائري في إحساسه؟!

واضح أن لدينا في هذا الكتاب أن إحساس الشعب حقيقة أكدها الأطباء الروس في نصوصهم، وحاول أطباء الغرب إخفاءها بالقول أنه مات بمرض «والدنستروم» وفجرها منذ سنة وزير الدفاع السوري فى إتهامه للرئيس العراقي - كما ذكرنا - ناهيك عن الإتهامات الموجهة للموساد وفرنسا والولايات المتحدة.

وبتجميع المعلومات الطبية والسياسية والصحفية، نصل إلى النتائج التالية :

أولاً : أن اغتيال بومدي حقيقة، وليس وهماً!.. وبالسم.

ثانياً : أن كل الأطراف التي اتهمت، لم يتم التأكد من صحة

إتهامها، لكن هذا لا ينفي عليها التهمة.

ثالثاً : أن اغتيال بومدين هو الذي فتح مجال الاغتيالات السياسية بعد التعددية.

رابعاً : أحاسيس الشعوب فيها دائماً جزءاً من الصدق. وأن هناك أطرافاً داخلية وخارجية لها مصلحة في اغتياله.

وبعد هذا كله أمازال هناك شك في أن بومدين مات مقتولاً بغض النظر عن المواد والأسباب، والوسائل وحتى الأشخاص؟

* * *

هوامش الفصل الثالث

(1) إذا صحت المعلومات التي جاءت في التقرير، حسب ما ورد في الصحافة، فإن الرسالة التي أشرنا إليها في الفصل الأول تصبح مرفوضة جملة وتفصيلاً، إذ من غير المعقول، أن يعلم بومدين أن ديستان يعمل على اغتياله، ثم يبعث له رسالة فحواها تجاوز المرحلة السابقة.

من ناحية أخرى فإن الزيارة التي قام بها الرئيس جيسكارديستان إلى الجزائر في مارس 1975، وارتكب فيها خطأه التاريخي حين قال في كلمته «فرنسا التاريخية تحيي الجزائر المستقلة...» وأعضبت الجزائريين عموماً وبومدين خصوصاً، ما كانت لتسمح بإرسال تلك الرسالة، وطبيعي أن يكون ديستان على علم بالتحضير لاغتيال بومدين.

(2) نلاحظ ترديد الاغتيال بالسم في أكثر من مصدر، وذلك على عكس الاغتيال «بالأشعة» الذي تردد منذ سنوات في الأوساط الجزائرية، لكن لم تؤكده ولم تنفيه أية مصادر أخرى، وبالنسبة للاغتيال بغازات الأعصاب، فهذه أول مرة يرد ذكره، لذلك وجب التنبيه.

(3) أنظـر، فـايـزه سـعـد، الخطة السـرية لاغـتيـال بومـدين، روزاليوسف العدد (3329) ص.ص 24-25 .

(4) فايزه سعد - روزاليوسف، المرجع السابق، بتصرف.

(5) يرى بـعض المحلـلين، أن هـناك إتفـاقـاً سرياً بين الـشاه، وصـدام حسـين، وأن ما وقع في الجـزائر كان تـتويجاً لذاك الإتـفاق، وأن بومدين علم بما وقع بين الشاه وصدام بعدها بمدة مما أثار غضبه.

(6) الكتاب صدر بالفـرنسية بعنوان «Les Malades qui nous gouvernent» أي هؤلاء المـرضى الذين يـحكمـوننا، في سـنة 1976، وفي هذه الطبعة لـم يشيـرا لمرض بومدين، - لأنه كان ما يزال عـلى قيـد الحياة - ثم أعـادا طبـاعة الـكتـاب بعد أن جـددا محتواه، وأضـافا له فصلاً خاصاً عن بومديـن، وصدر الكتاب في 1979/2/28، أي بعد شـهرين من وفـاة بومدين، تحـت عنوان، هؤلاء المرضى الجـدد الذين يحكمـوننا، وقد قام بـترجمة الـفصل الخاص ببومدين الدكتور «فوزي أيـوب»، ونشرته صحيفة الوطن الكويتية.

(7) تقـول بعض المـصادر أن بومـدين، قـد كان شـاهداً على حـوادث سطيف، قـالمه، خراطة 1945. والتي ذهب ضـحيتـها 45 ألف جزائـري، وفي ذلك الوقـت كان عـمره 13 سنة ومـع ذلك فقـد

حلف أن لا يضع رجله في فرنسا مادام حياً، ووفى بما حلف به حتى بعد أن أصبح رئيساً، وفي صغره أيضاً ذهب إلى حد رفض ثقافة فرنسا التي كرهها فتوجه إلى المدرسة القرآنية ودرس في جامع كتاني في قسنطينة، حيث كان رفاقه يلقبونه بالسويدي لطول قامته، وعندما بلغ 18 سنة دخل جامعة الزيتونة، ليتنقل بعد سنتين إلى القاهرة، حيث دخل جامعة الأزهر، التي كانت بؤرة ثورية يتخرج منها المحاربون لمختلف الأقطار العربية والإسلامية.

(8) المعروف أن زوجة بومدين السيدة أنيسة، قد تعلمت في الجزائر، وعلى فرض أنها تعلمت في سويسرا فما العيب في ذلك!، حتى لو كانت سويسرية، فما بالك وهي من أسرة عريقة تميزت بدور ثقافي بارز في الجزائر، فوالدها وعمها أول من أدخل الفيلم العربي إلى الجزائر.

(9) روزاليوسف، العدد 3329، مرجع سابق، ص 25، بتصرف.

(10) الدكتور محي الدين عميمور - أيام مع الرئيس هواري بومدين.. وذكريات أخرى دار إقرأ، بيروت لبنان 1995 ص 34.

(11) النص الحرفي لآخر رسالة بعث بها بومدين إلى الملك الحسن الثاني - رداً على رسالته - نقلاً عن مجلة الصياد 1978/12/15، وقد أوردتها هنا، ولم أتركها لتكون ملحقاً

لأهميتها، وحتى يطلع عليها القارئ ضمن السياق العام للكتاب، علماً بأنها أرسلت بتاريخ 21 أكتوبر 1978، أي قبل وفاة بومدين بحوالي شهرين، ونشرتها الصياد قبل وفاته بإثنتى عشرة (12) يوماً فقط.

(12) جاء ذلك في مجلة روزاليوسف العدد 3524 - بتاريخ 1995/12/25، وهذا في حوار أجراه الصحفي عادل حموده - نائب رئيس تحرير المجلة - مع وزير الدفاع السوري العماد مصطفى طلاس، وقد ذكر هذا الأخير في السياق العام للحوار ما يلي : «..الحقيقة أن صدام حسين نحر الفكر القومي.. وأكثر من ذلك وضع السم للرئيس بومدين بعد أن هدده بكشف خبايا إتفاق الجزائر.. ص 11».

(13) يجب التذكير منا بالدور الذي قام به سفير الجزائر في سوريا الدكتور عبد الله ركيبي فقد بذل مشكوراً جهوداً مضنية لإجراء الحوار، علماً بأنه يتمتع بعلاقات واسعة هناك ليس على المستوى الدبلوماسي فحسب، بل على المستوى الثقافي، ويحظى بإحترام من النخبة المثقفة، ولذلك وجب التنويه.

(14) نشر الحوار على حلقتين في صحيفة العالم اليوم «العددين 1562 - 1563 » بالقاهرة ونشر أيضاً في اسبوعية الشروق

العربي بالجزائر، وقد ردت السفارة العراقية في الجزائر بتكذيب كلما جاء في الحوار مع العماد طلاس، والخاص باغتيال صدام لبومدين بالسم.

(15) فقرة مقتطفة من حديث شامل أجريته مع الرئيس السوداني جعفر النميري حول العديد من القضايا، التي من بينها علاقته ببومدين، وقصة مرضه وإغتياله، وذلك في الخميس 1996/9/26 بالقاهرة.

* * *

لماذا تقرأ هذا الكتاب ؟؟

الكل يعرف أن قضية وفاة الرئيس هواري بومدين رحمه الله ظلت غامضة ومبهمة منذ وفاته الى اليوم، وأن المواطن الجزائري لم تقنعه الاسباب المقدمة حتى الآن، خاصة في السنوات الاخيرة وبعد ظهور تناقضا في تصريحات بعض المقربين منه قبل وأيام وفاته، وبالتالي أصبح الكل يتساءل عن الحقيقة، لا من أجل ردّ قضاء الله وقدره، ولكن لمعرفة على الاقل ولو نسبيا المتسبب في وفاة الرئيس الزعيم والذي أظهرت الأيام أن وفاته كانت كارثة على الجزائر دولة وشعبا ومكتسبات وأن الاحداث التي تعيشها الجزائر هي حلقة من حلقات المؤامرة الكبرى.

في هذا الكتاب حاول الأخ خالد عمر بن ققه أن يشفي غليله وغليل كل الجزائريين الاقحاح ويبحر في أعماق اليم دون أن يعطي أدنى اعتبار لكل المخاطر، وهذا من أجل البحث عن «السكين» الذي طعن به الرئيس الزعيم بومدين، وهكذا فقد استطاع أن يجمع خيوط الاخطبوط بواسطة عمل استقصائي وشاق يشبه الى حد ما تحريات الضبطية القضائية، وقد نجح نجاحا كبيرا في ذلك وقدم عمله عن طريق كتابه هذا، تاركا الحكم النهائي للقارئ الكريم أولا وللتاريخ ثانيا وأخيرا ولا يسعنا إلا أن نشكره ونشجعه على عمله هذا، لأنه عمل جاد وجريء وقبل كل هذا وذاك فهو عربون وفاء من جيل السبعينات لأن الطبقة الاكثر حرمانا وتهميشا.

رقم الايداع القانوني : 146-97

ISBN 9961 70 007-4